

نملة

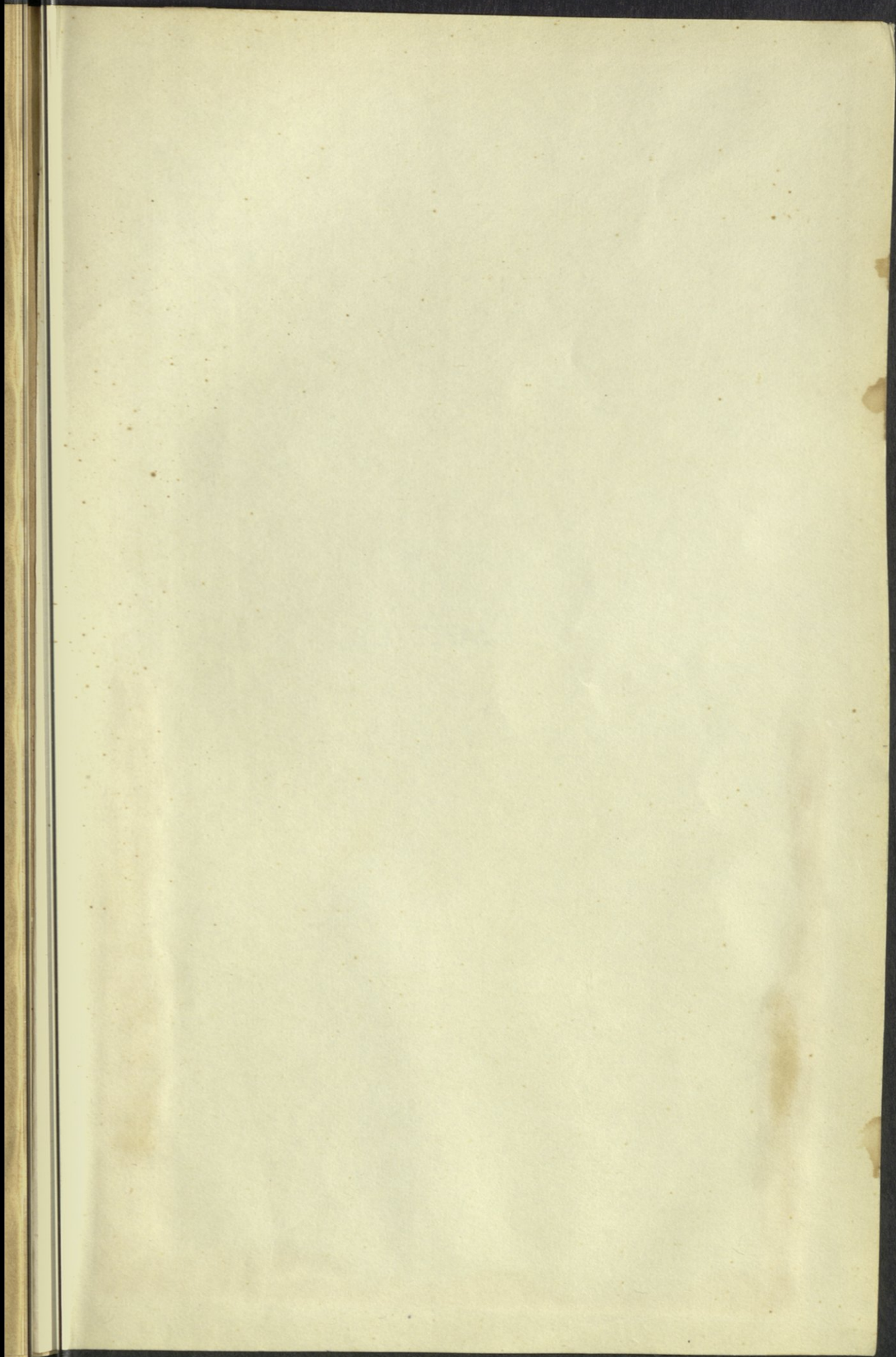
كتاب الملوك

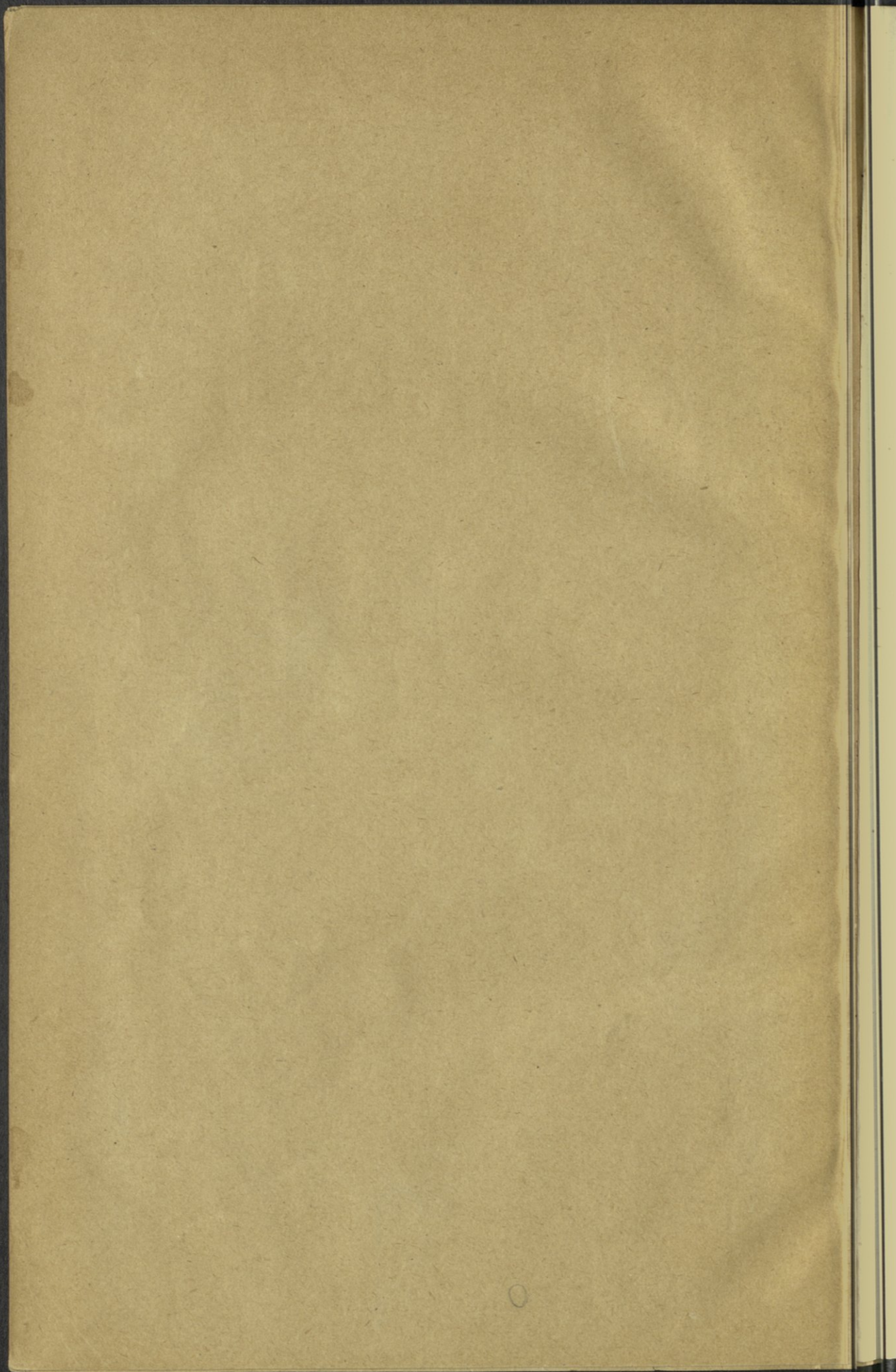
تجليد
صالح النقر
بيروت -

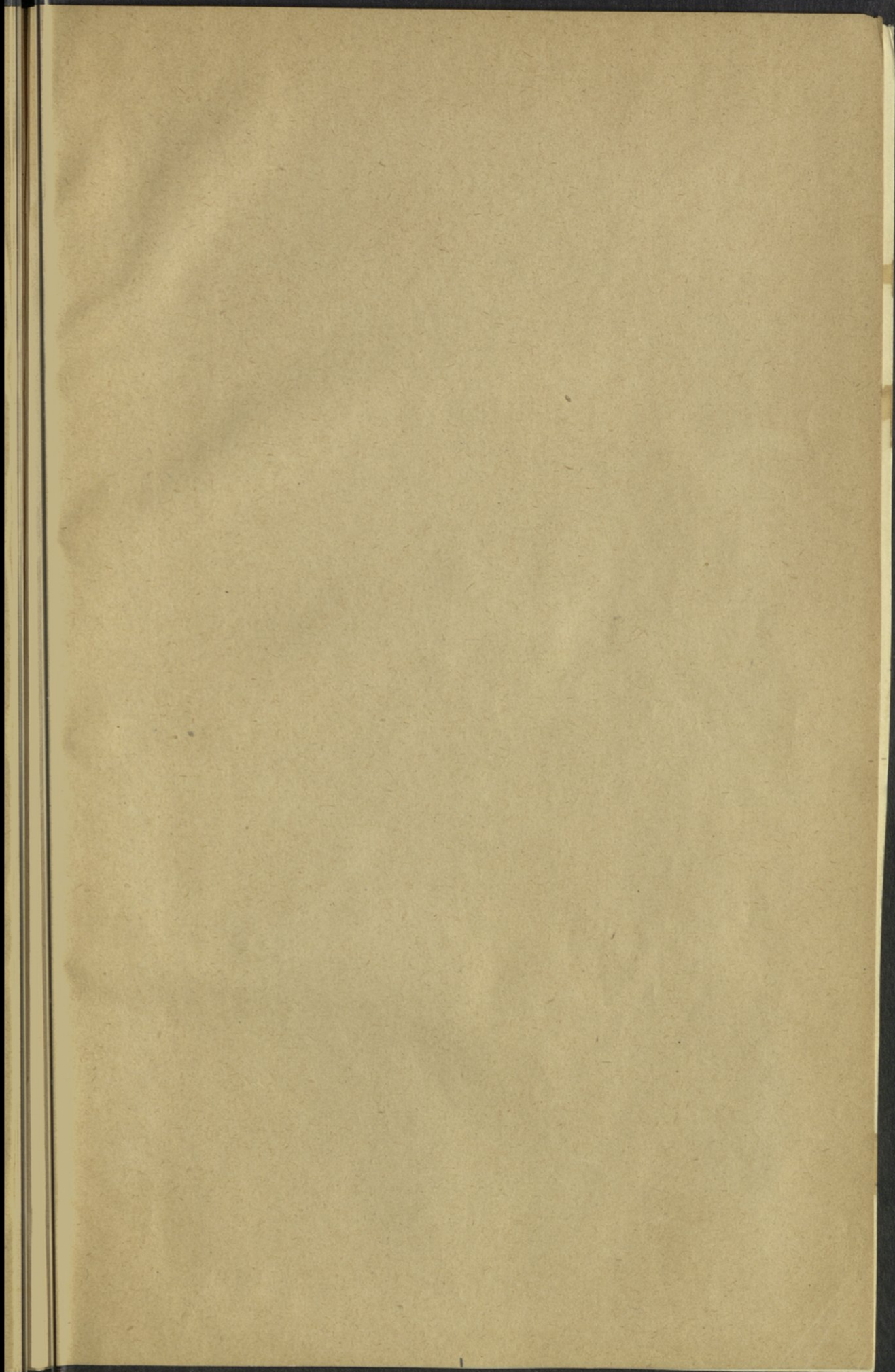
JAFET LIB.

上海外灘

J.B.
1980







كتاب الملوک

« مطبعة دار الكتب » — بيروت
حق إعادة الطبع محفوظ للمؤلف

للمؤلف

في الأدب :

١ - « كتاب المئة » .

وهو مائة كلمة ، اختارها المؤلف ، من « النهج » ، وعلق على الكلمة المختارة ما تحتاج اليه من شرح الامام السيد محمد عبده . في « مطبعة العرفان » ، في صيدا ، سنة ١٩٣١ .

٢ - « المفكرة الريفية » .

الطبعة الاولى ، معها « قصة الفردوس الارضي » . في « مطبعة الكشاف » ، في بيروت ، سنة ١٩٤٢ .

الطبعة الثانية ، معها « المراسلة المطرانية » و « مناظرة لغوية في حرفين من المفكرة » . في « دار الطباعة والنشر الشرقية » ، في بيروت سنة ١٩٤٥ .
الطبعة الثالثة ، معها « قصة الفردوس الارضي » و « المراسلة المطرانية » و « مناظرة لغوية في حرفين من المفكرة » . في « المطبعة العصرية » ، صيدا ، سنة ١٩٥٤ .

٣ - « دفتر الغزل » .

الطبعة الاولى ، معها « الخصوصيات » و « الاخوانيات » . في « المطبعة العصرية » ، في صيدا ، سنة ١٩٥٢ .

٤ - « تحت قناطر أرسطو » .

الطبعة الاولى ، معها « حول القناطر » و « بين الكرة والسطح » و « ملحق » . في « مطبعة الجريدة » ، في بيروت ، سنة ١٩٥٤ .

في اللغة :

« كتاب الدقائق » .

نقود واصلاحات ، وقد نشر اول مرة في مجلة « المشرق » . في « المطبعة

الكاثوليكية « في بيروت ، سنة ١٩٤٤ .

في القانون :

١ - « احكام الوقف » في الفقه والقانون .

(في ستة اجزاء) يحتوي المذاهب المعمول عليها ، والفتاوى المعمول بها ،
والشرائع والاجتهادات العثمانية والبنائية والسورية المحدثه ، الجزء الاول ،
في « المطبعة المخلصية » (صيدا) ، سنة ١٩٣٨ .

٢ - « الصلح الباطل ورد بدله » على الشرع الاسلامي ، والقانونين اللبناني

والفرنسي . في « مطبعة الكشاف » ، في بيروت ، سنة ١٩٤١ .

٣ - « مجموعة القوانين الطارئة » .

عليها تعاليق المؤلف ، مسهبة . في « مطبعة الكشاف » . في بيروت ،

سنة ١٩٣٩ .

في التاريخ :

« الأثر التاريخي » .

يدور على مخطوط « للادهمي » ، وعلى حوادث ونوازل لبنانية . وقد نشر

اول مرة في مجلة « المشرق » . في « المطبعة الكاثوليكية » ، في بيروت ،

سنة ١٩٤٥ .



920.02
N16KA

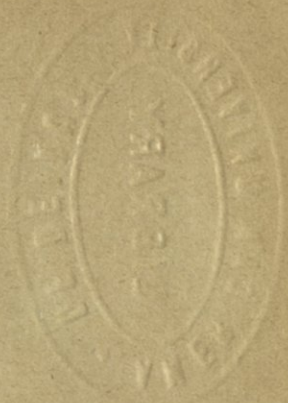
كتاب المملوك

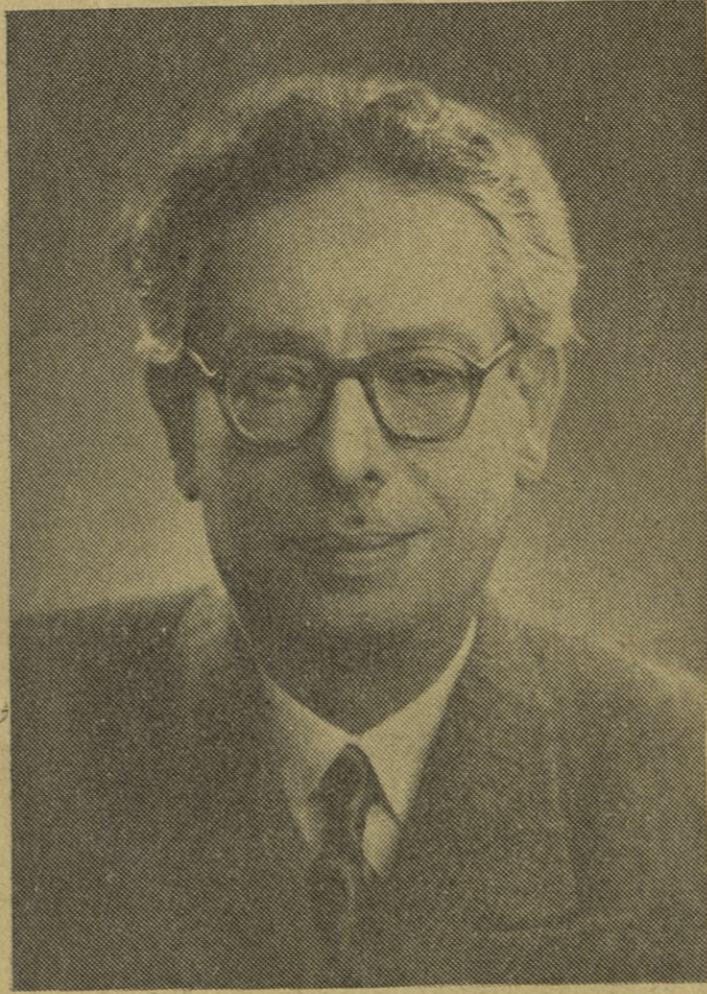
مع « وجهه غائبة » و « في سبيل الصواب »

امين نخله

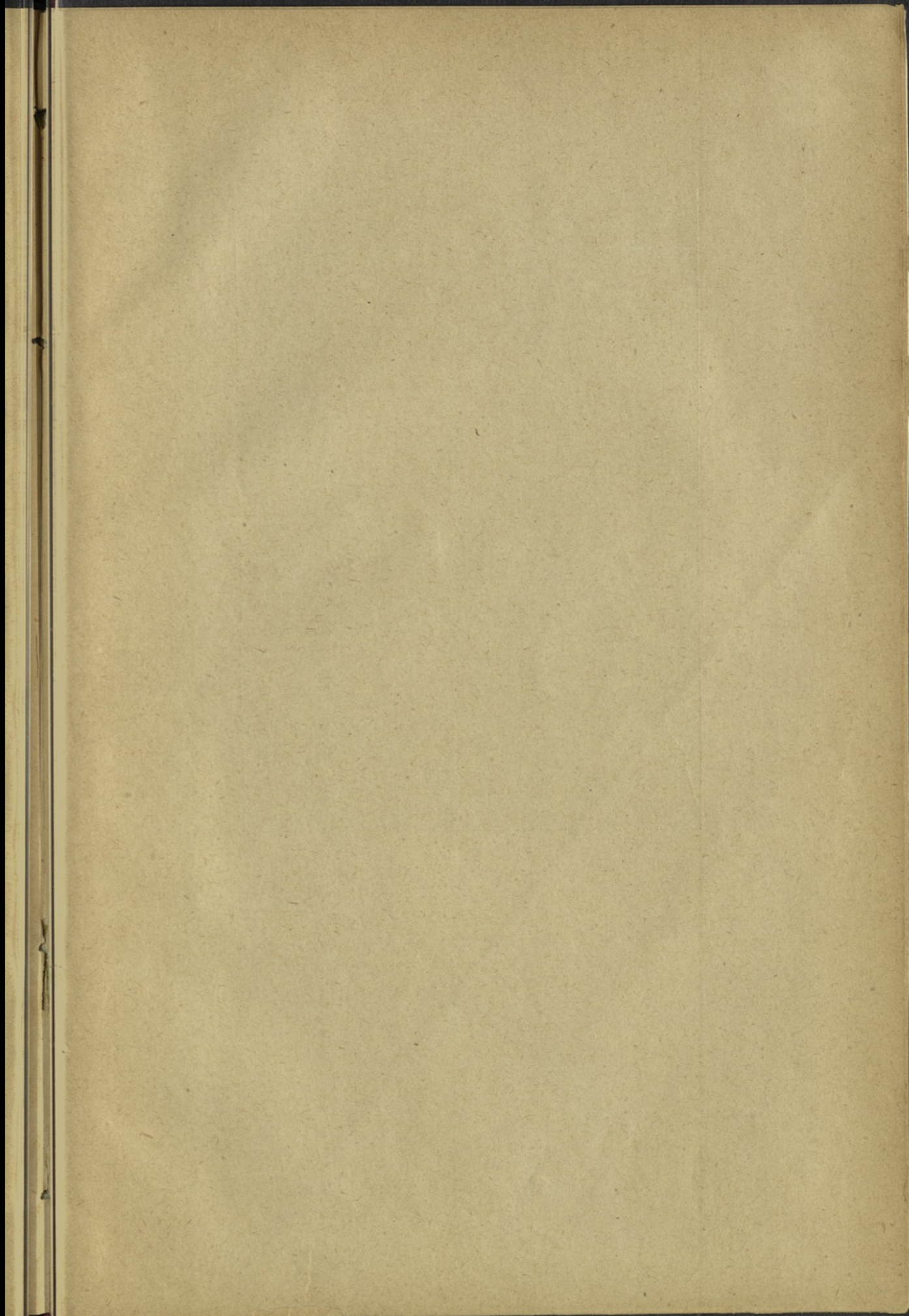
الطبعة الاولى في سنة ١٩٥٤

منشورات « مطبعة دار الكتب » - بيروت





الاستاذ نخله (في سنة ١٩٥٤)



مقدمة

في هذا الكتاب : تأيين ملك ، و ذكرى ملك ، و تحية ملك ، و خطاب الى ملك ، و كلام على ملك للعرب ، هو الدائم الملك فيهم ، على تطاول الأيام . لذلك يقع هذا الاسم (كتاب الملوك) على هذا المسمى .

أما ملاحق الكتاب ، فإن الشطر الأوّل ، منها ، يدور على وجوه عزيزة ، قد توارت في الحجاب . و إنما هو يدور ، في الغالب ، على ما كان لها ، بنفسها ، من لمعان في أدب ، أو علم ، أو عمل لبنانيّ ، أو عربيّ ، عظيم ، وعلى ما يحرّك مغيبها من اضاآت ، في وهدة الماضي ، حبيبة الى القلوب ، و الخواطر . و أما الشطر الآخر ، فهو يعطف على اشيآء من مواجيد النفس بالمعرفة ، و صباباتنا بتخليص الحقائق .

وعلى الجملة : فإنّ هذا الكتاب أوّله التفات الى الماضي ،

وأخره التفات الى اليوم القائم ، وما سوف يأتي بعده ، في
الزَّمن . جمع ماضياً ، وجمع حاضراً ، وآتياً - أي كما يصنع
الفكر الانساني ، في ملازمته الصحيحة لمقتضى الحياة ...

« في شهر آذار ، من سنة ١٩٥٤ »

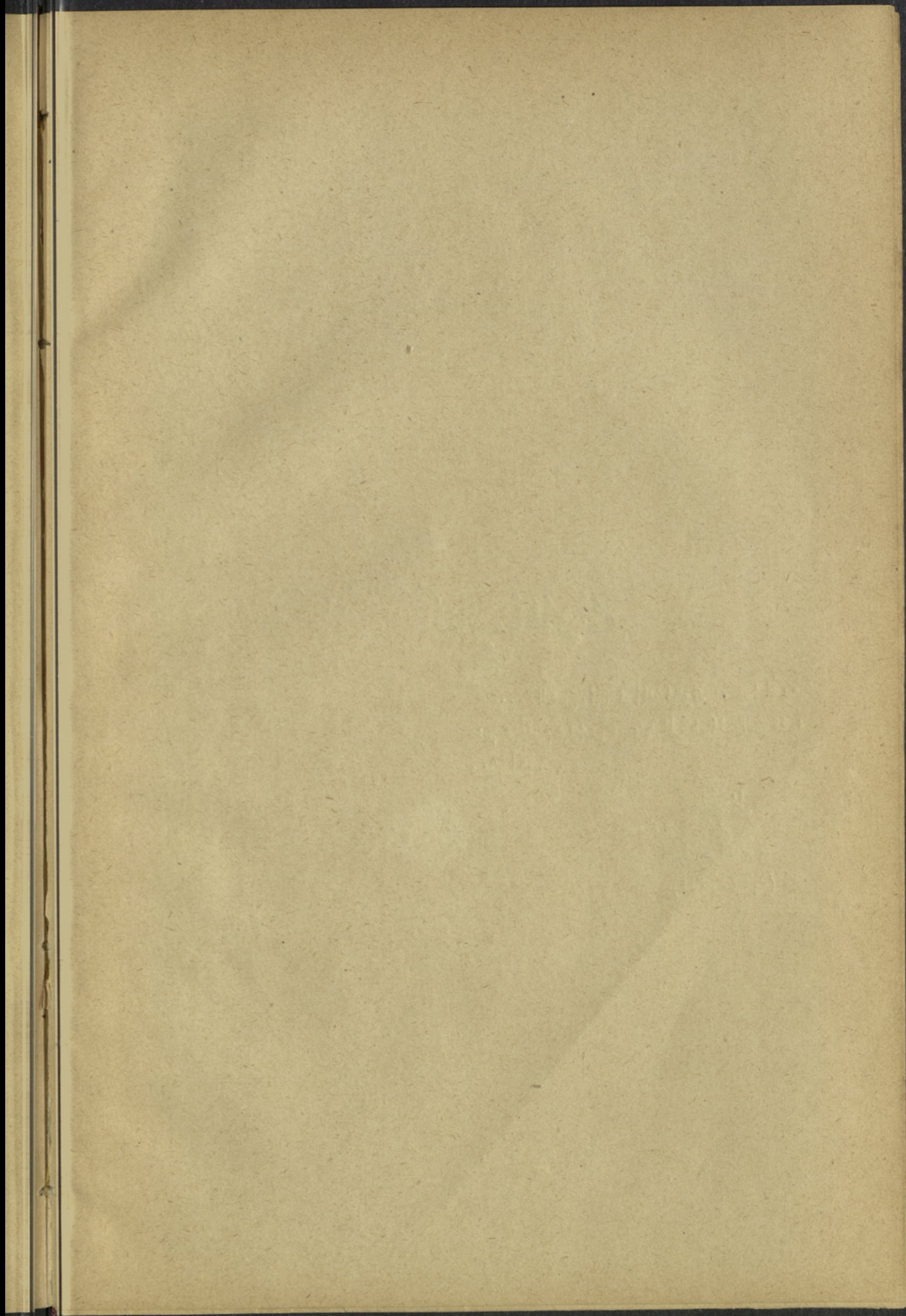
امين نحر

كتاب الملوک

... النفس الى فوائد الملوک ، والحديث
عنهم ، أقرم واشهى ، منها الى فوائد السوقه ،
ومن أشبههم .

الجامع

في « التاج »
(المنسوب اليه)



بين مصر ولبنان

هي الخطبة التي القاها المؤلف يوم المهرجان،
في عرس الملك فاروق ، سنة ١٩٣٨ . وقد
حضر المؤلف العرس مندوباً عن لبنان ، عامة ،
وعن الصحافة ، فيه ، خاصة .

باسم القلم ، في لبنان ، بل باسم القلم اللبناني ، في كل
ارض ، بل باسم اللبنانيين ، في دارهم ، وفي كل دار لهم ،
على جنبات المعمور ، أرفعُ هذا الصوت على النيل ، في فرحة
البيت المصريِّ بصاحب التاج ، فينجلي الحجاب ، ويبدشُ
وقار المُلك ، ويأنس عرش « محمد علي » لرسول الأحمبة ،
من أرض « بشير » !

فيا فاروق :

يا لابس المطرف « العَلوي » ، ووارث الميثاق ! هذه
رسالات الوفاء ، في يدي ، احملها اليك ، من وراء قناة

«السويس» ، من نهايات شطّها الآخر ، حيث لا تنبسط
القناة ، في ظنّ القلوب ، بين بيروت والقاهرة ، ولا تشطر
دار الهوى ، في خطرات «محمد عليّ» ، وسرائر «بشير» .
فكانّ معاول «دي ليسبس» ، عند عقدة «الايض
المتوسط» و «الاحمر» ، ووشك التلاقي بين لوني آسيا
وافريقيا ، في مخطّط الدنيا ، لم يُسمع لها رنة ، على الساحل
الشرقيّ ، من «المتوسط» .

وهكذا تسلم علاقة الماضي ، بين جبل المقطم ، وجبل
الأرز ، لا يحول دونها خطّ «السويس» ، في الخارطة ،
وهي من إرث الوجدان ، قبل عهد الخلائق بالورق ...
كان التراب أمس - كما تدري - أوفر أثرًا من الماء ،
في علائق البشر ، وعمار الممالك ، وتقلّ المدنيّات . بل هو
كان مدار العقل القديم ، في تأليف الامم ، ومزج الاجناس ،
قبل ان يصبح المدار على دم العرق ، وهوى الضمير ، ولغة
القم . ففي ذلك الأبد السحيق كان من المتحتّم أن يغدو هذا

الشاطيءَ المشرقيّ، المنطرح من مباسط «طوروس»، الى
مشارف «اسوان»، ملعباً لدورين، ينقص تاريخ البشر
يوم يسقط لهما ذكر. لنا دور منهما، ولمصر الآخر. فرجّت
كرة الأرض، يومئذٍ، من الحركة المشرقيّة. فانّ الملعب
عريض، قبالة الأمم، على «المتوسط»، والرواية رواية
المدنيّة، واصحابها اساتذة الأزمنة، في رفع الحجر الى الجوّ،
واخراج النبتة من الارض، وإبراز خاطرة البال في حلّة
الحرف، وربط هذه المخيّلة البشرية بالغيب العالي. فشهدت
الدنيا القديمة، للمرّة الأولى، كيف العهد بأفاق يُراد لها
وحدة، وشعوب يُراد لها تأليف. واذا الشمس لا جديد
تحتها، فكرة من صوب مصر علينا، وكرة من صوبنا على
مصر، حتى تتعب الأزمنة بين أخذٍ وردّ. فكان عبثاً مجيء
«كنعان»، من جوار الجبل اللبنانيّ، ووادي مصر أغبر،
وماء النيل هدّر، فيمسح بالخضرة ها هنا، على كل فجّ

عميق . وكان عبثاً أن يقطع « توتمس » الينا ، حتى يبلغ
ضفاف الفرات ، ويكاد يشرف على صفرة آسيا ، كما كان
من العبث أن يقطع « سلاتيس » اليكم ، حتى يبلغ
ضفاف النيل ، ويكاد يشرف على سواد افريقيا . بل كان
من العبث ، فوق ذلك ، أن تتلاقى على الملعب : فرعونية
من جانب ، وفينيقية من آخر ، نمدُّكم بالحرف واليد
والشراع ، وتمدُّوننا بالخاطرة والصنع والوسق ، فتدقُّ
البشار ، في الدنيا ، باول العهد بالعلم والصناعة والتجارة .
ولا تقف المحاولة عند ربط صعيد بصعيد ، وعلم بعلم ،
ومصلحة بمصلحة . بل جاوز الامر الى الديانة . فاذا الاله
البناني « ادونيس » تحت القناطر ، في « اسوان » . واذا
الاله المصري « اوزيريس » ، فوق المذابح في لبنان . فألف
الأول ، في العصبية الدينية ، زرقة السماء المصرية ، على
خضرة الجبل اللبناني ، كما جمع الآخر أمواج « أفقا » الى
أزباد النيل . ولكن الوحدة ، في التيجان والرايات واجناس

القبائل ، قد لبثت على ذلك ، كَلَّه ، غير مستطاعة ، حتى اذا
دار بنا الفلك ، بعد مليٍّ من الدهر ، وطلعت علينا امم
الفتوح ، واحدةً واحدةً ، من الاشوريين الى الرومان ،
خفتت على هذا الشاطئ المشرقي صيحة الوحدة ...
ثمّ انقلب أمر الدنيا . ثم جاء الإنجيل . فنوّرت
ها تيك الجهات ، على مقربة من لبنان . ثم نور لبنان بالسبب
الجديد . وما هي حتى جاءكم « مرقس » يكرز . فكأنما
عدنا الى المحاولة . ويامع في الايام ، بعد ذلك ، ضياء من
صوب « البحر الأحمر » ، فتلاى مكة ، وتفرق بلاد
العرب في اللاآء القرشي . فاذا القضية لقومية ، فوق
كونها لديانة . فتنقل شعاع القرآن في مشرق المتوسط على
الدروب الباقية من ذلك الغرض القديم . وشرعت الرايات
المحمدية تحفق في دمشق ، على خطوتين من جبل اللبنانيين .
فأقبلنا ، في الزمن « الاموي » ، نعب من « كتاب العرب » ،
وندير أسننا في الفصاحة ، كما اقبلتم ، على يد « ابن مروان » ،

تتلقون عميدة الكتاب الجديد ، وتتلقون لسانها ، فكان
أن جمعت رابطة الفم بين هذا « الوادي » ، وذلك « الجبل » ،
بعد انُجما مرّاتٍ ، في المحاولة ، على المصلحة والعلم
والديانة ، وعلى دفع الفتح ، وتحمل الامم الغريبة . ولكن
تلك الرابطة ، التي تضم الفم الى الفم ، كانت اشدّ الروابط .
فتلاقينا ، معاً ، على ملعب « المتوسط » كرتةً أخرى . اما
الغرض القديم فانه ، في نقلة الزمن ، كان قد تحوّل من نحو
الى نحو ، بل انتقل من جنس ، في الجمعة المشرقية ، الى
جنس . فضجّ الكون بالعرب ، ورقصت فصاحتهم على
« شنيل » الأندلس ، كما رقصت على « نيل » الكنانة .
وغدوا وراحوا على الممالك ، حتى لقد تصايحوا بالضاد على
ابواب فرنسا !

وتسكن العروبة ، بعد الدور العظيم ، وتجيء العثمانية ،
تلاّ الملعب . فنعتليه ، ومصر ، وتتعاقب فصول ، في الرواية
التركيّة الطويلة ، وتختلف وجوه ، وكانت مغارب الشمس

قد أضآت ، وطفقت مشارقها تعتم ، فيرج المدفع في
« عكا » ، ويقطع على « بونابرت » طريق « الهند » ، ويرد يد
الإسكندر الثاني عن تغيير خارطة العالم .
فيا صاحب الجلالة :

في تلك اللّفة ، من التاريخ ، جاء جدك ... وقد كان
من الاتفاق أن يولد بونابرت ، في « اجاكسيو » ، خارج
فرنسة ، في العام الذي وُلد فيه محمد عليّ ، في « قونية » ،
خارج مصر . فلما غلغت الشمس الفرنسية ، في جوف
« البركان المنطفى » ، وراء الأوقيانوس ، وأخذت الشمس
المصرية تتعالى في سموات التاريخ - وكأنما انوارها تنفّلت
من وحشات ذلك الغروب البعيد ! - كان من الاتفاق ،
ايضاً ، أن ينهض عرش عصاميّ ، في الشرق ، حيث يهوي ،
في الغرب ، عرش عصاميّ . فيتربّع محمد علي في مصر ،
ويعود الشاطيء المشرقيّ ، على يديه ، الى المحاولة . وانت
تدري أن كرة الارض قد صغر حجمها ، في عيون اساتذة

الطمع ، منذ ما قامت اوروبة على قدميها ، واصبح قيد الشبر ،
من أرض على خليج ، يحلّه فاتح ، في الأعصر الحديثة ، بمثابة
نصف قارة يخوضه ، في الأعصر القديمة ، فاتح مثله . فلم
يخرج محمد علي على قاعدة الأساتذة ! ولكن قيد شبره كان
كبيراً ... فصهلت خيل « طوسون » ، و « ابراهيم » ، على
سيف البحر الأحمر الشرقي ، وفي صحراوات الحجاز ،
ومشارف نجد . ولوحت أعرافها تحت « اسماعيل » ، على
البحر الأزرق . وخطرت عمارة « ابراهيم » بين عيني الجزائر
« اليونانية » ، ثم طلعت علينا أعلامه ، من « العريش » .
فقطعت من يافا العربية الى « قونية » التركية ، خلف
طوروس ، وكادت تطلّ على خليج البوسفور .

اماً لبنان فانه أقبل على المحاول المصري الكبير ، في
اجابة من النفس ، اذ الملعب المشرقي لنا فيه سابقة
الخطوات . فلا عجب أن تصبح يد « بشير » في يد « محمد
علي » - وكان سيّد الجبل ، قد نفضها ، قبل ، من نابوليون

نفسه ، عند أسوار عكا!... ثم تُنسخ ، في المحاولة الجديدة ،
صورة اختها ، تلك . فيرتبط الجبل اللبناني بالوادي المصري
في العلم ، بعد أن ارتبط به في الحدِّ والمصلحة واللسان ،
وفي دين ابن مروان ، ودين مرقس . فأظلمنا « القصر العيني »
معاً ، وجمعنا مطبعة بولاق على المتعانت في الفلك ،
والزراعة ، والهندسة ، والجغرافية .

وكما كانت المحاولة ، في أمس العتيق ، تساجلاً بين
نصرة من هنا ، ونصرة من هناك ، كذلك كان الأمر ، في
أعقاب القرن الماضي ، يوم أصبح العلم العربي لا يطلع له
قر الآ من ارضنا . فبعثنا بالمتعانت في الأدب ، والفن ،
والتاريخ ، واللغة . وجاء الردُّ بعد الأخذ ، وصحَّت المقابلة
في التاريخ . وإذا كانت رياح العريّة تهبُّ اليوم من
مصر ، ومن عندنا ، في آنٍ معاً ، حتى ليكاد يختلط الطيب ،
فتقاتل على نحر الشيوخ ، فما هي الآ من أهبة ، يأخذها
التاريخ ، لتدوين هذا النسق الجديد من المحاولة ، التي لم

ينقطع خيطها ، والحمد لله .

فيا صاحب الجلالة :

شرفاً لعرشك ، فهو كرسي النيل . وقد ظلّ نصف
الحضارة البشرية . وتيهاً لمطرفك ، فهو ثوب محمد علي ،
وقد فياً نصف الحضارة العربية . فشاطر عرشك في
محاولة الشرق القديمة ، وساهم مطرفك في المحاولة الحديثة .
فاذا تسلّمت ، بكفيك الغضتين ، وديعة الماضي الباهظة ، فلا
خوف عليها ، وأبيك ، يا « ابن فؤاد » ! وان لبنان ، الذي
شرفني بالوقوف بين يديك ، فوق تشرّفي بالكلام باسمه ،
لا يبرح على العهد : فدارنا الشرق ، وأهلنا العرب ، ولساننا
الضاد ، نشمخ به في الافلاك ...

ويا صاحب الجلالة :

مُقبلٌ أنت - ياربيع « الوادي » - على سنّة الشمر ،
غبّ الزهر . فتصبح المثل العالي ، لجيل الشرق الطالع ، في
مباكرة ذلك النعيم الاجتماعي ، الذي يأنس له العقل ،

والدين ، ويحمد « واديك » طيب الموسم ، وينظر لبنان الى
البركة ، بعين الصديق - اذا شاء الله .

فيصل

« في تأييد الملك فيصل بن الحسين » .

بين إخوة الفجيعة ، في مناخة العرب ، مكان . فنغشى
مزدحم الهول ، بين شقّ الجيوب ، وشقّ القلوب .
ونهبوي على الجوانب السود ، من عرش فيصل ، بدمعة
لبنانية ، تنزل سكة حرّى !

ثمّ يرمى الينا بالعيون ، في المأتم . في مأتم واحد
العرب ، أبي الوحدة الكبرى ، من حدود مطلع الشمس ،
وراء الصحراء العربية ، حتى ملاعب الموج ، من الأبيض
المتوسط . حدود مشية الشمس ، وهي تنتقل من صبح الى
ضحى . وتقلّب على سبجات الشروق ، من صحو الى صحو !
فوالله انا نرانا في مكاننا ، حيث يجب ان نجلس . فهذا
الجبل ، العربي ، لبنان ، عدو « الوحدة الصغرى » ، حبيب

« الوحدة الكبرى » ، لأجدد الإخوة الباكين بالمناحة .
أفليس فيصل خير من عرف كيف تتلاقى العرب على
الغرض الصحيح ، وتلتفُّ اللسنة على « أم الكتاب » ،
ودم العمومة ؟ أفليس هو خير من يُشكى إليه مناً ، ويُشكى
إليه منهم ، يوم تتجاذب جبل الاغلبية : طرف « لابن عبد
الله » ، وطرف « لابن مریم » !! حتى اذا كاد ينقطع الجبل ،
بين المتشادين ، تدارك فيصل العرب بحكمة من عنده .
فيسكن الجبل المضطرب ، وتقرُّ المشادة . وهكذا كان
فيصل نعمة الله في اختلاف الريح ، وانفلات الخناصر .
يصبر علينا ، وعليهم ، وعلى الايام ، الى أن سقط شهيد
الصبر الجميل ، يقطر الدم المشهد من جوانب نفسه . فأمّحت ،
منذ عشرة ايام ، نعمة الله ! وأصبحنا لا ندري من يستطيع
أن ينبري لجبل العرب ، هذا . فضلاً عن انّ فيصلاً كان يعلم
انّ الجبل اللبنانيّ منابت رماح عربيّة ، قبالة « المتوسط » .
اذا انبسطت ، في الايام ، وحدة العرب ، على السهول

والجبال ، فإنَّ الرِّماح اللبنانية طويلة ، بحول الله . يُشكُّ
بها أباعد الغرض . فتنفذ الى اوروبة ، الى اميركة ، الى
افريقية ، الى آخر أرض الله ...

وكان فيصل ، رحمه الله ، يدفع عن جبلنا ، يوم
يضطرب الجبل ، بثافتنا ! فيشيد بتقدُّمنا على سائر
الاخوة ، في حضارة مثلى ، ومجتمع معلى . فمن الحقِّ علينا ،
بل من الحقِّ لنا ، أن نزل ، اليوم ، في المناحة ، محلاً
مقدِّماً ، نلوي منه على فيصل ، ونبكي قدر مكاننا في عينه ،
ومكاننا في أمم العرب !

فيا فيصل : بين مشارف الشام ، حول نعشك ،
وقباب بيت المقدس ، وأمواج الفراتين ، وخيم الفلوات ،
من التهايم ، والصحارى ، ومهادل النيل ، مصباً وشطاً ،
الى بقية أهل الماتم ، يتهدى جبل اللبنانيين ، الأخضر ،
فيبكي ، بلغة جدك ، تاجك الهاوي ، وصولجانك المطروح .
ويا لك من ميت يجمع عليه الدمع ، ولطم الحدود ، في حين

ازورار العيون ، وتفرق الأيدي !

...

منذ ١٣٥٢ عاماً هبت على الصحراء الجاهلية ريح من
مكة . فندي الرمل ، واهتز الشجر ، في واحات البيد . ثم
اطل على النهار الجديد رايات تحفق ، عند خطوط الآفاق ،
من هنالك . فزلزلت الجهات الأربع ، من تحت الجاهلية ،
وتهاقت الأصنام الى الحضيض . فتح لجد فيصل ، باسم
السيف ، والبلاغة ، لا يرحم في الخوولة والعمومة احداً ،
الآن من رحم نفسه ، وآمن بالفتح ، والآ الذين هم « أقرب
الناس مودة للذين آمنوا » ، الآ « الذين قالوا انا نصارى » .
فسقطت الجاهلية ، وقام الإسلام الى جانب المسيحية ، في
العرب . جناحان « للجزيرة » : من هنا انجيل ، ومن هنا
قرآن ، نهضت بهما الى الحضارة . فتعانتت السيوف ، من
قريش ، والدروع ، من غسان . وانفجرت الأجواء ، بين
يدي العرب ، على دروب النجوم . تحت كل كوكب ، في

الدنيا ، كوكبة منهم ، وفتح ، وعمران ...
الآن جدّ فيصل - صلى العرب عليه وسلموا -
لم يكن ، في القوم ، إلا رسول ديانة جديدة ، يمتحون منها
لقوميتهم بمقدار . فلحقته اغلبية ، وتأخرت عنه أقلية . على
ان الجميع سواء في الافتتان : بهرم « كتاب » ، كلُّ حرف
منه شعشة ، فعينك فيه كعينك في اللاآء !! و « حديث »
يتساقط على القلب ، ويكرُّ هنيئاً الى الوجدان . ورسول
يتيم ، امّية ، يكاد يؤثر اليتيم ، خلّقه ، والامية لبلاغته !
فكان أن اصبح جناح ، من جناحي العرب ، عالياً
على أخيه . وكان أن ذهبت دنيا ، وجاءت دنيا . فوقع جناح
اسلامي في ناحية ، وجناح نصراني في أخرى . لا سبيل
الى جمعها ، في الجوّ المدهم ، والرياح المختلفة . أيام عفا عنها
الله ! أطفئت السموات ، من فوقنا ، وطمس على الطرق .
فخفت ضجة العرب ألف سنة ، على التقريب .
وهكذا ترى انه كان لا بدّ للعرب من رسول قومي ،

بعد الرسول الدينيّ، الذي مهد الطبائع، وصقل الأذهان،
يجمع الجناحين باسم القومية، وباسم العربية. فتنهض أمة،
لا دين، ويتقدّم زعيم، لا نبيّ!

ويشأء تأريخ العرب، مرّة أخرى، ان يدوّن فيه،
لمكة، سطر أطول من شعاع الشمس، وأكرم - بل
لقريش، بل لهاشم، بل لبيت الحسين. ففي عام ١٩١٩،
أي بعد تراكب ثلاثة عشر قرناً، تهبّ من الصحراء ريح
جديدة، يعقبها خفق أعلام، وقرع سيوف. فتتحرك
مواطن العرب، في كلّ فجّ، للسواد الطالع من آفاق
« الجزيرة ». ثم تقرب الرايات، لوناً فلوناً، فتتهلّل أمة،
تحت التراب التركيّ، تنفضه ريح، من صحراء مكة، على
يد ابن محمد!

ثلاثة عشر قرناً مرّت على العرب في مثل النعاس
المتوهم. فاسترخت الأمة - لا راية لها، ولا وطن، ولا
زعيم. اللهمّ الا شباباً، من عندنا، ومن دمشق، رفعوا

اصواتهم في باريس ، ووادي النيل ، ومدثوا اصابعهم الى
البوسفور ، فخنقوا على المشانق . وكان الاجنبيون قد
يقظوا ، حيث انطرح جناحا العرب في الليل التركي ،
الأسود . وناهيك من احلام زينوها للغفاة ، واضغات
حملوها لهم ، في استرسال الكرى . فوالله حتى الريش ،
في جناحي ذلك النسر النائم ، قد تحوّل لونه ، وحتى الخوافي
قد نكرتها القوادم !

فما اطلت رايات فيصل ، على المدائن والثغور ،
تقطع الصحراوات الينا ، من مكة ، حيث لا يخضر نبت ،
ولا يلمع ماء . حسبوا الرايات لمحمد ، واخيل براقيّة ، في
فتح جديد . وهالهم - على فرض الأمر غير ذلك ! - أن
تُعقد الألوية للصحراء ، في هذا القرن العشرين ، على
المدن ، وشطآن البحار ...

واظلت عباءة فيصل عرش أميّة ، على بردى ، أشهراً ،
كان فيها الأمر سجالاتاً ، بين الزعامة القوميّة ، والزعامة

الدينيّة . حال يقتضيها سياق الزّمن - إذ الدهماء كانت
لا تبرح على أعقاب الغفوة ! وأضف أنّ السياسة ، يومئذٍ ،
كانت تفيء إلى الجامع والكنيسة ، ويتراشق أهلها « بآية »
و « إصحاح » ...

أمّا ابن محمد فانه كان ، من وراء حجاب الملك ، يمسح
عينيه بأطراف عباءته ... بكى فتجأ عريياً ، على اسم اللغة
والجنس ، قلبته الأيام لدين وملة ، وملكاً عريياً ، حوّلته
إلى شبه خلافة . فاعجب لابن محمد ، وقد ترعرع ما بين
البيت المسطّر ، وزمزم ، واشتدّ عوده على مهابط « الرسالة » ،
في تلال مكة ، كيف أرادها للقوميّة ، وأرادتها الايام
للديانة ! بل اعجب له ، وقد استحقّر عباءته ، المنسوجة في
شمس الصحراء ، أن يلوّح بها عرض الشوارع ، تحت
شرفات القصور ، كيف هو يغدو ذلك المتحضّر العظيم ،
ذا العقيدة ، والطلاب ، في زحمة « الرذنكوت » ، التي

لا تدين بقومية ، ولا تتحرك لدأب رفيع !

وجهد فيصل ، في وضع حجاز ، بين رسالته ، ورسالة
جده ، مستطاعه . إلا ان بردى كان يصخب ، وتضج
منعطفات الغوطة . وكان يصخب البحر ، من لبنان ،
والجبل . قيامة قائمة ، فلا سميع ، ولا مجيب ، حتى قصف
المدفع في ميسلون ، واختلط السيف العربي ، الأحذب ،
« بالمتريوز » ، ذي الطلقة الخمسة ، فهوى العرش .

وما هي حتى استردّ الفاتح العربي جأشه ، وجرت
مقادير باليمن ، على حساب الانكليز . فأطلت « سدارة »
فيصل ، من فوق الفراتين ، تستدعي العرب ، من قرب ،
ومن بعد ، واعتبرت بغداد بواحدة دمشق ، وصُرفت
المقاليد ، جميعاً ، الى يد « ابي غازي » ، وهو الذي لبث
ينظر الى « الفيحاء » ، من بعيد ، بعيني ابي عبدالله ،
صاحب غرناطة !

ولقد ظلّ ابن محمد في عرش العرب ، في زعامة العرب ،

يعمل للقومية ، وللعربية ، حتى أهوى ، امس ، من العرش
الى الجنة ...

رسالتان ، في أرض العرب ، كريمتان : واحدة لابن
عبد الله ، اسمها الاسلام ، وواحدة لابن الحسين ، اسمها
العروبة . فمن آمن بالأولى ، وجب عليه الايمان بالثانية .
ومن آمن بالثانية ، فهو حلٌّ من أختها - وترتبة فيصل ...
لكم دينكم ولي دين !

فيا غازي ، يا ابن فيصل : هذه رسالة أليك ، لا يزال
عليها طريئاً دمه ! فأدّها للعرب ، كما أرادها : قومية ، عربية ،
خالصة ، يهتف باسمك ، في الخافقين ، سبعون مليوناً من
الخلائق !

ويا غازي : عليك تحية الملك ، من ألف راية عربية ،
في ألف مدينة عربية ، تلوح بها لك الضمائر ! و عليك تحية
الملك ، من راية في الأرز ، خضراء كالأمل بك ، مشاحجة

كأنفك ، مثقلة الحواشي كهّمك . . . فاذا رحت تنسج
للعرب راية واحدة ، تخفق ، غداً ، على الشرق ، من كشبان
البيد الى أثباج الشُّطوط ، فمنّا الخصرة - وحقّ أيبك . . .

ذكرى الملك

« في سنة ١٩٣٥ »

لمرور ثلاثمائة سنة ، على وفاة الأمير
فخر الدين المعني الثاني .

سقى الغيث ، من مشارف كسروان ، تراب الخازنيّ
القديم ، أبي صقر ، ابراهيم بن سر كيس ، الذي ما برح
تأريخ القضية اللبنانية يتأرجح على ذكره . فإنّ من عنده ، من
« برج الدّرج » ، على « النهر » ، طلع الكوكب اللبنانيّ ،
وظفق يتنقل . وهكذا يشاء المجد أن يجمع ، في النهضة ،
جناحي الجبل ! فيكون للجنوب يد على بناية الوطن ،
وتكون يد للشمال . واحدة تنوخية سلفت ، في يوم العمار
الأوّل ، وواحدة خازنية تلت ، في يوم العمار الآخر !
كانت الدنيا على قلق ، يوم اطلّت رايات معن على
الشوف . فالكرج تتكسر سيوفهم عند تفليس ، والترك

تساقط ، في انطاكية ، على صاحب لوآء حلب (بولدوين) ،
وحلب تزخر بفتنة ابن ارتق ، ويافا في حصار المصريين ،
وصيدا في الرّوع ، وكذلك صور ، ودمشق ، وطرابلس ،
فانّ البندقية تقذف الشراع ، تلو الشراع ، الى الشاطئ
الشرقي من المتوسط .

ولقد تلاقت رايات معن الايوبيّ ، ورايات بختر
التموخيّ ، في غفلة الدنيا ، هذه ، يوم كان الشوف خالياً ،
يصفر . فعمرته العشائر من حوران ، ودمشق ، وحلب ،
وسهول البقاع ، تنزل على الأراء ، من ربيعة ، سادة البقاع ،
ومن ابناء ماء السماء اللّخميّ ، سادة الساحل . فرُفعت
البيوت ، في الوطن الجديد ، وغرس الشجر ، ورُسمت
الدروب ، من السهل البقاعيّ الى صحراء الشويقات .

وكانت معاول الحرّات تهوي ، في صوت خافت ،
وتسقط مطارق البناء على الحجر ، فلا ترنُّ ، مخافة أن تسمع
التيجان ، في انطاكية ، ودمشق ، وبيت المقدس . . . وما

هي حتى آنس اللبناييون الأولون ، في أطراف الشوف
الغريبة ، وفي سهول البقاع ، أمنًا ، واستقلالاً ، فتنادوا على
بيعة معن ، يقيمونه ملكًا بعمامة - على عادة العرب -
وتتأخر عن جواده ، للإجلال والتكرمة ، خيول السادات ،
من بهرآء ، وتغلب ، وتنوخ ، ففعلوا . وملك الأمير اللبنايُّ
الأول ، ثلاثين عامًا ، ملك المنشئين : يرفع ، في اثنا عشرها ،
الامة ، والحصون ، والشجر ، في وقتٍ معاً ! حتى لقد كانت
خريطة الوطن خضرآء من جانب ، حمرآء من آخر ... تدفق
المواسم في صوب ، وتدفق الدماء في صوب ، فما بخل لبنان
في الاثنتين ! كان معن بقاعي الهجرة ، هواه الحقل المرع ،
والشجر المائج ، على الصهاريج ، فمسح على الوطن بالخضرة !
وكان ايوبي العرق ، عدنانيًا ، تُقطع سرته بالسيف ،
فمسح بالسيف على الوطن !
كذلك جمعت سهول البقاع ، وجبال الشوف ،
وسواحل بيروت ، على عقدة اللوآء الواحد ، بعد أن نزلت

المعنيّة ، من البقاع ، على التنوخيّة ، في الشوف . ولقد كان
من المحتوم أن يتلاقى السهل والجبل ، في عمار الوطن ، فتزخر
المروج بالرّزق ، وتجيّش الجبال بالجند . لذلك بايع التنوخي
صاحبه المعنيّ موضع التقدّم ، في الأمة ، دون أن يستكبر ،
اذ الغرض أن يقوم ، تحت الشمس ، هذا الوطن الصغير !
ولسوف يذكر اللبناييون ، في باب الحرمات
اللازمة ، يداً لبحتر بن زهر الدين ، تنوخيّة ! كانت هي
السمحة ، البيضاء ، على وحدة البلاد ، الأولى ! فان بحتراً
هو مرسل البناء ، والمعاول ، والمطارق ، الى معن ، يوم
بنيان الشوف ، وهو ، هو ، مبايع معنًا ، وعاقده لواءه ،
على السهل ، وعلى الجبل ، يوم بنيان الوطن ...
ثم يفيم ذلك الجوّ الصّاحي ، من تأريخ اللبناييّة
الأولى ، ويتعاقب على الامارة — بين بعقلين ، ودير القمر —
ايام بالنحس ، وبالسنعد ، ويغدو الجبل ، وهو يعج
بالاحزاب ، بين قيس ويمن ، في الجنوب ، وبالسيوف ،

بين بني العسّاف وبني سيفا ، في الشمال ، ويكون الأمر
قد انتهى الى يد قرقماس ، فيموت ابو نخر الدين حسرة
وانفة ، في مغارة تيرون ، تحت جزين ، بعد أن خانته
الحظوظ ، في مرج عرجوش ، عند الوالي العثماني ، ابراهيم
باشا . فخفتت ضجة قيس ، بعد قرقماس الشهيد ، الذي ترك
ابنيه نخر الدين ، ويونس ، في العاصفة اليمينية القاسية ،
فرخين بلا وكر !

ولكن الله ، سبحانه ، قد هيا ، يومئذ ، لهذا الوطن
الصغير ، نعمة تغمره من كل جانب . فانبرى أبو صقر
الخازن للقدر المهيأ . وأبو صقر قيسي الهوى ، خازني الوفاء .
فاحتضن فرخي القيسية ، بين برج الدرّج ، وبلونة ، ستة
اعوام ، حتى اذا بلغ فخر الدين أشده ، وانفرجت الدنيا
لجناحيه ، أطلقه ابو صقر ، باسم الله ، والوطن ، والامارة ،
من كسروان الى الشوف - من المخبي الى العرش !
وهكذا يذكر اللبناثيون ، بعد يد ابن زهر الدين ،

في عنق القضية ، يد ابي صقر . تجمع ، في الأولى ، القبائل
المحمدية الى اللوآء البناني ، وتجمع ، في الأخرى ، القبائل
المسيحية ، ويغدو الجبل للجميع !

ومن نعم الله ، على فخر الدين ، انَّ بحدّه ، معن ، كتب
لنا ، على يد بختر ، آية المبايعه التنوخيّة ، وانَّ به كتب لنا ،
على يد ابي صقر ، آية الوفاء الخازني ، فقامت اللبنانيّة بعد
الأولى ، وقام العرش بعد الثانية .

ولا يقف سطر المجد ، في تاريخ فخر الدين ، ها هنا ،
ولا تنقطع فكرة الاتّصال بين البناة ، في عمار الوطن
الصغير . بل يعتلي فخر الدين العرش ، ويملأ الدنيا . . . فتصهل
خيله من حلب الى بيت المقدس ، ويختال أسطوله بالشرّاع ،
والسفين ، من هذا الشاطىء الشرقيّ ، في المتوسط ، الى
الشاطىء الغربيّ ، منه ، قبالة اوروبة الجنوبيّة . ملك ممنع ،
واستقلال ، وحروب عادلة ، وسفراء الى الممالك ،
وعهود تُعقد . وناهيك بمجاهديننا ، يومئذٍ : فواحد في

باريس، (واسمه لويس الثالث عشر !) ، وآخر في رومة ،
(واسمه البابا بولس الخامس !) ، وثالث في توسكانة ،
(واسمه فرديناندو الأوّل !) . . .

اماً الذي في اسطنبول — وهو الخليفة — فانّ فخر الدين ،
المحمديّ ، ينفض منه اليد ، ويجرّ على جيشه جيش لبنان ،
عند أبواب طرابلس ، وفي غوطة دمشق ، وفلوات حوران .
اذ الأمر في القضيّة اللبنانيّة كان أمر وطن ، لا أمر دين ،
واذ المطلب كان لدولة ، واستقلال — أي على دأب معن ،
وبحتر ، وأبي صقر ، واخوانهم !

ولقد ظلّت شمس فخر الدين تشعشع ، على طريق
اللبنانيّين ، عاليةً ، حتى أدركها المغيب ، فوق شطآن
فلورنسة ، وانطفأت في مغارة جزّين ، ودخلت عتمة الأبد ،
في البوسفور . . . فكمّل بذلك ، في تاريخ الاستقلال ،
سطر المجد ، على اسم اللبنانيّ المحمديّ ، الذي مدّ يده الى
الملوك ، المسوحة الجباه بزيت الكنييسة ، ونفضها من

الخليفة، صاحب «الخرقة النبوية»، صوتاً، منه، لاستقلال
الجبيل! هو دين، في ذمة القضية، للملك اللبناني الحمدي،
لا يلبث الملك اللبناني النصراني حتى يغبه، فيغدو كتاب
القضية بفخر الدين، وبشير، كتاب التضحية من أجل
الاستقلال، بعد أن كان يبخر، وأبي صقر، كتاب
التأخي من أجل الوحدة! وهكذا يتلاقى، في نقلة الزمن،
جنوب الجبل وشماله، ومحمدية ومسيحية، وتحقق الراية
البيضاء، المخططة بأخضر، فوق «العمائم البيض»،
و«العمائم الحمر». فانه بعد أن يدور الفلك بالدولة المعنية،
ويتصل الشعاع الشهابي بالعرش، تتهيأ مطالع الشوف
لضياء، يطل من فوق دير القمر، على اسم الكوكب
العظيم، أبي الشرف القومي، بشير بن قاسم بن عمر،
وينور جبل اللبنانيين، كئله، بالشهاب... فركب بشير
العرش. وكانت الدولة التركية قد القت عينها الى امة، في
لبنان، تحت الخطى في طريق الاستقلال. فطفق بشير

يعمل للقضية ، بين لين وشدة ، وأخذ وإعطاء . فيوماً في
دفع الغارة الوهايية عن دمشق ، ويوماً في دفع الغارة
اليونانية عن بيروت ، واضف أيام سانور ، وسهل البقاع ،
وجبة بشرى . سياسة يقتضيها الأمر اللبناني ، يومئذ ،
والجبل حشوه دسائس ، وصاحب عكا ذو عدة وعديد ،
هما فوق عدتنا وعديدنا ، وحكومة اسطنبول تنظر ، بالعين
الحرآء ، الينا ، منذما جرى الشراع الأرزى بين صيدا
وتوسكانة . فكانت القضية على يد الملك الشهابي سجلاً :
تشيل منها كفة ، وتخط كفة - سجل بين زمن عنيد ،
وملك عنيد ...

واقد استطاع بشير ، في عصف تلك الرياح ، أن يوفى
حق الحضارة ! فبسط الأمن على الجبال ، والسهول ، وأبنت
الثوت الأخضر ، ورفع قصور الدولة ، وقلاعها ، وشق للعلم
طريق وادي النيل ، بين بيت الدين و « القصر العيني » ،
يفد على هذه شعر آؤنا ، ويفد على تلك طلبة العلم الطبي منّا .

وظلَّ الشهابيُّ على بناء الحضارة البنائِيَّة خمسين عاماً ،
يرفع الحجارة بالسيف ، ويرفع العقول بالسيف ، ايضاً -
فإنَّ أعداءنا كانوا يكيِّدون للقضيَّة ، حتى حول « قاعة
العمود » ، ويرشقونها ، من ضوله بعجه ، بالَّذين هم من
لحمنا ودمنا !

ولقد وفي بشير لفخر الدين ما كان له من دين ، في ذمَّة
القضيَّة ، وسجَّل المجد ، في كتابها ، واحدة مسيحيَّة ، بواحدة
محمديَّة ، ليصبح كتاب الاستقلال كتاب الملكين ، كما قد
كان كتاب الوحدة ، بالتنوخيِّ والغازنيِّ ، كتاب
العنصرين ! إذ انه بعدما فتح بونابرت نصف الدنيا ، وجاءنا ،
يومئذٍ ، يفتح النُّصف الآخر ، وكان ما كان ، وراء أسوار
عكا - وخاف بشير ، على الجبل ، من الفاتح الغريب ،
نفض يده منه - وقد ترقق له بونابرت مرَّتين ، ثنتين ...
أما تلك اليد النصرانيَّة ، البنائِيَّة ، التي ارتدَّت عن
مصافحة الفاتح النصرانيِّ الاوروبيِّ ، ، ذي الجبروت ،

والجحافل ، والرايات المزررة ، وذلك صوتاً للقضية ، ودفاعاً
عنها ، فهي ، هي ، التي بسطت للأمر المصري ، المسلم ،
الذي كان لا يبرح حظّه في ناحية الظنّ ، يوم حسب
الشهابي أنّ في بسطها صوت الجبل ، وحفظ الاستقلال .
فمضى جيش بشير على العثمانيين ، في كسروان ، وهوران ،
الى جانب جيش ابن محمد عليّ ، دون ان يلتفت الأمير اللبنانيّ
النصرانيّ الى ممالك نصرانيّة ، اربع ، تشدُّ أزر الخليفة ،
عبد المجيد على الأمير المصريّ المنفرد ، محمد عليّ . . . فقد
كان الغرض ، في قضية لبنان ، ان يُغتتم الخير من ايّ صوب
يجيء . فوفى بشير ، بذلك ، لفخر الدين ، دين الماضي ،
كأشرف ما يقع الوفاء !

ولكنّ القدر الأسود كان واقفاً بالمرصاد ، عند ميناء
صيدا ، للشمس الشهابيّة . فتراجعت خيل ابراهيم على
أعقابها ، وظفر سليم العثمانيّ ، بحليف المصريّ ، في عقر
داره ، وذلك بعد خيانة « شير الباطيّة » ، في ضاحية جونبة .

فهوت شمس بشير من صيدا الى مالطة ، كما قد هوت ، من
قبل ، شمس فخر الدين من صيدا الى فلورنسة ، وتقابل في
تأريخ القضية صفحتان ، عريضتان : طويت الأولى على
صناف البوسفور ، وعلى صناف البوسفور ، ايضاً ، طويت
الثانية !

...

ففي هذا اليوم العظيم ، الذي يُقام على ذكرى الملك
الجبلي ، فخر الدين الثاني ، تتلقت أمة ، ها هنا ، الى الماضي ،
فتجد انّ بأبي الرجل قام وطنها ، وانّ على حسابه تألفت
أجزاؤها ، ومن أجل دينه ، في ذمة قضيتها ، ترك النصراني
أخاه النصراني ، بل ترك عزّة العرش الى ذلة المنفى !
فشرفاً لفخر الدين ، في تأريخ الوطن ! إنه على أساس
آبائه رفع جدار القضية ، وبأيدي خلفائه مكنه على نسق
الاستقلال . وعفا الله عن أحلام بعرش ، وبملك عرض
الشرق ، ذهب كذّة الكرى ، وهي ، في هذا الليل

اللبنانيّ، الذي لاحسّ فيه ، ولا بارقة ، يعاودنا تذكّارها
الحبيب ، ويطرق خواطرنا ...

سعود في لبنان

كُتب في العدد الخاص ، من جريدة «اليوم» ،
بزيارة صاحب الجلالة الملك سعود للبنان - وكان
لايزال ، جلالتة ، على ولاية العهد .

في الساعة المباركة ، من يوم غدٍ ، الخميس ، تهبط ، من
السماء العالية ، طيَّارة فيها الأمل الكبير ! فتَهتِزُّ أرض
اللبنانيين ، من الطرب والشرف ، بين يدي القادم ،
وتلتفت ملايين العرب ، من ديارهم ، بين وبر ومدر ، تغبط
هذا البلد الأخضر ، على قدوم الغيث السعوديّ . . .

سعود بن عبد العزيز ، عاصب الشملة في موضع التاج ،
والعاقب ، بعد «الطويل العمر» ، على العرش الذي يظلل
البقعة الحبيبة ، الغارقة في شميم العرار ، وفي نعمة الاستقلال ،
ونعمة ابي سعود - فألف اهلاً بفتى الفتيان في العرب !
ويا فرحتا برؤية الشملة الحرير ، التي اليها تشخص التيجان ،

وبرؤية السيف الأحذب ، الذي منه تحتشم المدافع !
ولا ، والله ، لا جبال الذهب ، بين العروق والقطع ،
ولا الزيوت في عشرات المنابع ، ولا عشرات الألوف في
الحديد ، والخيل ، والقسطل ، والطنك ، والطيارة ، هي
التي تسبغ على ابن عبد العزيز هذا الوقار الجم . وإنما يسبغه
عبد العزيز ، وقيام عبد العزيز ، بحق الله ، وحق العرب ،
ثم يوسعه ، ويطيله هذا الذي يقوم به في ولاية العهد حافظه !
فلبنان ، من خليجه ، في الأبيض المتوسط ، الى جباله ،
قبالة الصحراء السورية ، اليك ، يا ابن حامي المكتن ،
يهرول ، على ما عنده من شعب في الدين ، وفرق في النظر
الى مصاير الدنيا . فانك انت ابن السيد الأوّل ، في العرب ،
والأمل الأوّل لهم ، والمستقبل الأوّل فيهم . وما برح وطن
البنانيين ، في كلّ تقلة من التأريخ العربيّ ، هو صاحب
الصوت في الركب ، يطلع بالهداء ، في أشهى ما تكون
الفصاحة بلغة القرآن !

وأما هذه الجريدة « الطيبية » ، وهي التي لها كانت
القدم السابقة ، في التوجه اليكم ، آل سعود ، فإنها بعددها
اليوم ، تصل ما لم ينقطع من هواها لكم ، وتعلقها بكم .
وبحسبها من المجد ، يوم التباهي برجوع العود على البدء ،
في الرأي ، انها لبنانية ، سعودية ، عربية ، أبدأ !
ثم شكراً لها ، فإنها قد هيأت لهذا القلم ، الريان من
شميم عراركم ، أن يقول ، من صميم القلب ، ما قاله ،
الآن ...

المقدمة المسيحية

هي المقدمة التي وضعها المؤلف لكتاب
« نفسية الرسول العربي » ، وقد وضع له
« المقدمة المحمدية » العلامة الشيخ عبد القادر
المغربي .

« محمد » نعمة ، لا كلمة — لفرط ما مسحت على شفاه
الخلائق ! — تأخذ بالسمع ، قبل الأخذ بالذهن ، وتفيد
خفة الحروف ، وحلاوة اللفظات ، قبل أن تفيد العلاقة بالله !
وليس على بسيط الارض عربي لا يفتح صدره لها ، ولا
ترج جوانب نفسه . فمن لم تأخذه بالإسلام ، اخذته
بالعروبة ، ومن لم تأخذه بالعروبة ، اخذته بالعربية !
وفي هوى محمد — ولا حرج في التمسك بالقومية ،
والكف باللغة ، كما لا حرج في الدين ... — تتلاقى ملتنا
العرب : ملة القرآن ، وملة الانجيل ، حتى كأن الإسلام
إسلامان : واحد بالديانة ، وواحد بالقومية ، واللغة . او

كأنَّ العرب مسلمون جميعاً - حين يكون الاسلام هكذا:
هوياً بمحمد، وتمسكاً بقوميته، وكلفاً بلغته!

ومحمد، لا تستطيع طائفة، في العرب، أن تنفرد
بالتجاهي به! فهو، فضلاً عن كونه للخلق كلهم، حيث
يتشبهون بأكرم الأدميين في حفظ النفس، وحفظ الجار،
وحفظ الله، لبالأجدد أن يكون للعرب، كلهم، حيث
نتشبهه، فوق ذلك، بأبلغنا في الفصحى، وأنهضنا في الجلى،
يوم حطَّ الكفَّة بعرب، وشيلانها بأعجام!

وإنَّ لغير المسلم، في أرض العرب، أن لا يدين بدين
«ابن عبدالله»، وأن يخاب لبه، مثلاً، كتاب «لابن مريم»،
كلُّ حرف منه يقطر رفقاً، وصيلب قعدت به دنيا، وقامت
دنيا. فإما ان يكون فينا عربيٌّ، من لحمنا ودمنا، ثم يغدو
لا يمتُّ الى محمد بعصبية، ولا الى لغة محمد، وقومية محمد،
فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه بين يوتنا...

ولقد جعل محمد هذه الدنيا عربية، بحتاً! فاستنزل كتاب

« الرِّسالة » بلغة قومنا ، وحاط ديانتهم بها ، بل أتى بيرهانه
منها - يوم زفَّ هذا المعجز ، المخلَّد بين الحلق والحنك -
ثم أدار « الحديث » ، فمسح على الاخلاق ، وكرأتم العادات ،
في مختلف اطوار المعاشة ، حتى في الملبس ، والمطعم ، بلون
عربيٍّ ، لا غبار ^{أجنبي} أُجْنِبَ عليه .

وانَّ حظَّ اللُّغة - بل حظَّ القومية - من ديانة محمد ،
لم يقف عندها هذا القدر الوافر ، بل تجاوزه الى قدر أوفر ، فاذا
لسان قومنا يصل بين الحياة الدنيا ، والأخرى ، واذا هو لغة
السعداء ، في ضجَّة النعيم - « العربية لغة اهل الجنة » ...
ذلك ، والجنة الموعودة ، نفسها ، لم تُبسط في
« الكتاب » ، ولا في « الحديث » ، الأعلى هوى العرب ،
وتنظر خواطرهم ، وتلَّهف اكبادهم . ففيها الشجر ، والأنهار ،
والقطوف الدواني ، والارائك الخضر ، لاشمس ، ولا
زهرير ، بل صحو دائم ، ونعيم ، وملك كبير ... الى آخر
ذلك اللوح الرضواني ، الممتع .

فجعل محمد الدنيا لقومية العرب ، وجعل الأخرى
للفتهم . ثمَّ خاف ان ينشطر القوم ، من وراء الرِّسالة ، الى
فريق مؤمن بها ، وفريق مؤمن بغيرها ، فجمع بكلمته
« من احبَّ العربَ فقد احبَّني » حيث المخافة من الفرقة ،
ولمَّ حيث المخافة من الشَّتات ! كأنما الشرط ، عنده : الحبُّ
للعرب ، والحدب عليهم ، والأخذ بنصرتهم ، لا الدخول في
دينهم ! فأعجب لرسول ، همُّه في الأرض أمرُ الله ، وجرُّ
الخلائق اليه ، من كلِّ جنس ، كيف يُعنى ، من اجل قوميتته ،
هذا العناء ، ويبتُّ هذا البتُّ !

وها ان اقوامنا العرب ، في الآفاق ، كلما أطلق المؤذِّن
صوته ، بين السماء والارض ، عند تحرك الصُّبح ، في
العتمة ، او تنقل الشمس ، بين مبرزها ومغربانها ، أحسوا ،
في تلك الصيحة ، بأنَّ « شيئاً » ، من قوميتهم ، يخلق في
الجوآء ، ويغذُّ في السير ، من فيجِّ الى فيجِّ . . . واستشعروا
كبرياء العصبية لديانة من عندهم ، تُدقُّ بشائرهما بلغتهم ،

ويكبر بها على اسم صاحبهم ، ويُدخل فيها من باب تأريخهم !
روى لي واحد ، من الذين صرفوا طويلاً في باريس
- وهو مسيحيٌّ من عندنا ، من بلاد الجبل ، درس الطبَّ
هنالك ، وتعلَّم من لغة الجماعة ، ومن تأريخهم ، وطرائق
الأخذ والاعطاء ، عندهم ، في كلِّ دقيقة من دقائق المخالطة ،
أكثر ممَّا يعرف من أشياءنا ، بكثير - قال : انه فيما هو
يسير ، ذات مرَّة ، في شارع « كاتر فارج » ، على مقربة من
« جامع باريس » ، بعيد الخاطر عن هذه الارض اللبنايَّة ،
إذا تكبيرة تنطلق من المأذنة ، وتعالى على الجلبة الباريسيَّة ،
فأخذ صاحبنا بيفتة حلوة ، ملأت فؤاده . قال : « فلم أتمالك
أن حوّلت طريقي ، وغشيت باحة المسجد ، حيث قضيت
بعض الساعة ، بين تلك القناطر والقبب ، وكأني في سربي ،
في لبنان ، انظر الى منازلهم ، واصغي الى احاديثهم - على انَّ
بيني وبينهم سماوات ومفازات » .
هكذا جمع محمد ، اليه ، بفضل العربيَّة في رسالته ،

والعروبة في نعرته ، هذه القلوب العربيّة ، من كل ديانة ،
حتى يبيت يجد صديقنا ، ذاك ، تحت مأذنة الجامع ، في دار
الغربة - وهو ابن المسيحيّة ، كما رأيت - ما لا يجده تحت
قبة الكنيسة !! ذلك حيث ان اللّغة ، في باب الميول ،
وترك الطّبع على عنانه ، هي فوق الدين ، والعصبيّة القوميّة
فوق العصبيّة الطائفيّة !

فمحمد ، اذن ، هو للعرب ، قاطبةً ، في لغة « الكتاب » ،
و « الحديث » ، ونعرة الجنس ، وشدة الحفيظة عن كرائم
النعنعات ، وفي تاريخ لفتح الممالك ، وفتح العقول ، ملأاً
كرأد الضحى ، واخلاق عليها سلام الله ! امّا المسامون ،
فليس لهم من زيادة علينا ، حيث الانتفاع به ، والأخذ عنه ،
والتباهي بذكره ، الاّ الإسلام ! وهي زيادة ، ترى المسيحيين
من العرب - أردتُ الأقحاح منهم في النسب ، وفي
الأدب - يتلافون فقدانها في « محمديّتهم » . فهم
يستزيدون اكبادهم من هوى محمد ، ويستزيدون سنتهم ،

واقلامهم ، من النصره لشأنه ، حتى ليكاد يتعادل النصيبان !
لذلك تتماوج ارض العرب ، اليوم ، بمجد واحد
العرب ، وحبّه ، وتتجاوب الاصداء فيه ، على رمل البيد ،
ونبت الجبال ، وعلى كل شاطئ وخليج ، من مطلع الشمس ،
في الزرقة المشرقية ، الى محطتها في الضحى ، عند حدود
الصَّحو ... حبُّ « لابن عبدالله » ، سواء فيه ابيض
واسود ، ومقيم وراحل ، ومسلم ونصراني . واعتزاز
« بابن عبدالله » ، وهزُّ اعطاف ، على الأمم ، باسمه !

...

وبعد ، فبهذا الحبِّ ، كله ، وهذا الاعتزاز ، كله ، يعبجُ
كتاب صديقنا الفيلسوف الاستاذ الرياشي ، وهو الذي
اقدّمه ، الآن ، بين يدي القراء ، ويا نعم الحبُّ اللذي لم يبقَ
للرب غيره ، من يجمع القلوب على القومية ، فتحفظ لغتهم
بلغته ، وتذكي نعرتهم الجنسية بنعرته ، ويا نعم الاعتزاز به
ثم اني لا ادري ، أيصحُّ أن أخصَّ ، أنا ، بكتابة

هذه التمهيدة « المسيحية » ، في الكتاب ، أم يخلق بي
- ولساني « محمدي » ، وهواي ، وشق هذه القصة ،
التي في يدي - أن أخصّ بكتابة اختها « الحمدية » !!
ويا محمد : يميناً بديني ، دين « ابن مريم » ، وبخشبات
صليبه ، اننا في هذا الحيّ ، من العرب ، نتطلع اليك ، من
شبابيك البيعة ، فعقولنا في الإنجيل ، وعيوننا في القرآن ...

وجوه غائبة

الى صديقي كاظم الصلح .

Les vivants seront toujours et de plus en plus gouvernés nécessairement par les morts.

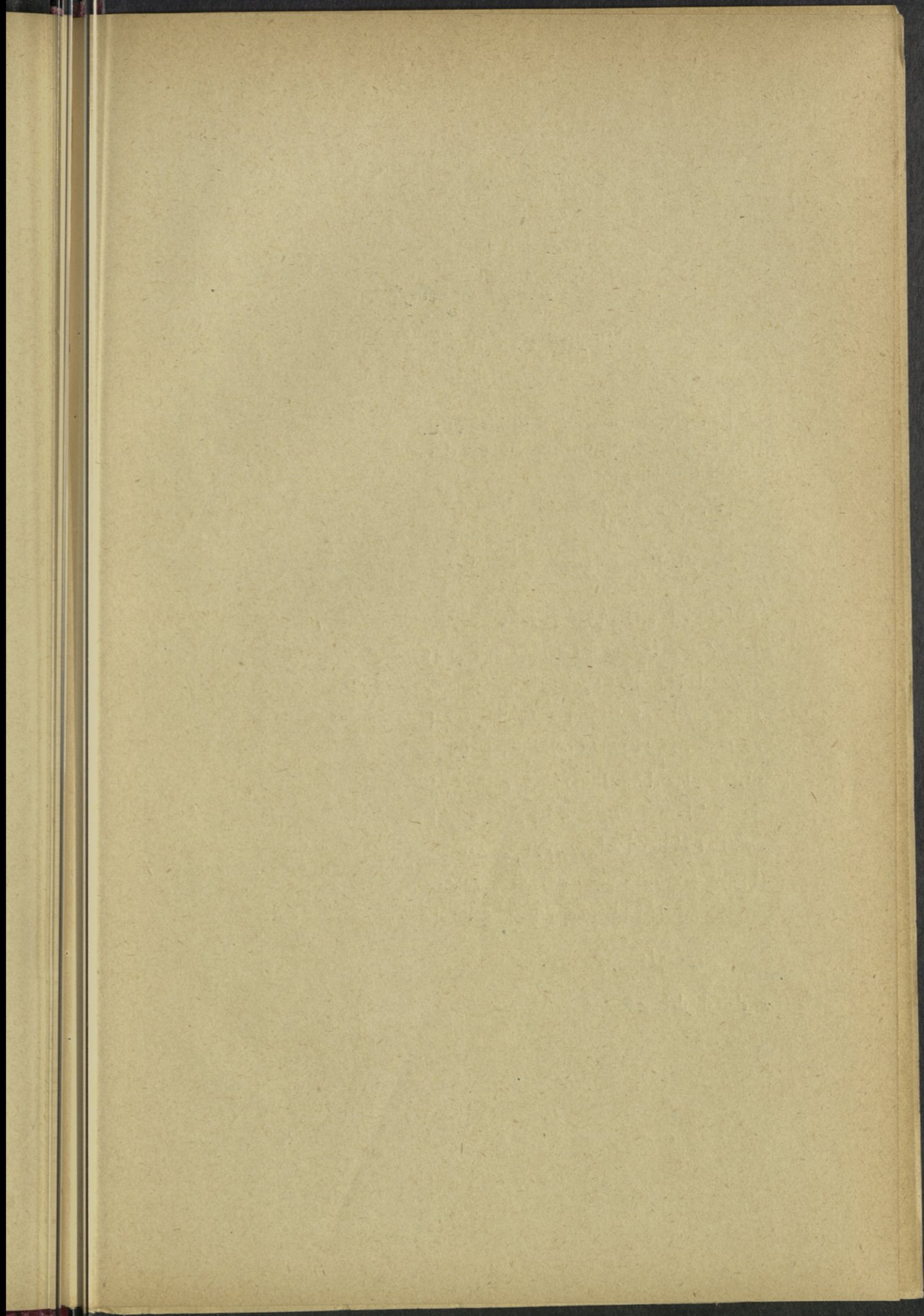
أوغيست كونت

في « الرسائل »

... وعندني ، فوق هذا ، ان الاساتذة الموق ، الذين سلكوا السبيل قبلنا ، وخرجوا من الدنيا ، فكأنهم مضوا ليفسحوا لنا المواضع ، لمن حقهم أن يطرقوا خواطرنا ، وأن يرشفوا ، في الفاظنا ، قليلاً من الحياة ! فانهم ، رحمهم الله ، لم يبق لهم ، من سبيل الى الضياء ، الا هذه الحروف السود ، التي تضيء فيهن خواطرنا ... هذا جبل الأبد ، هيات أن ينقطع ! والأدب بشري (من نتاج اللحم والدم) ، فليس في استطاعة أحد أن يقطع هذا الجبل !

المؤلف

في « تحت قناطر أرسطو »



تأبين لبناني

كُتِبَ يوم نقلت تجاليد صاحب « الهدى »
الى لبنان .

تلك النقطة الخضراء ، في خريطة الجغرافية الكبرى ،
عند كتف الأبيض المتوسط ، من الشرق ، هي ، على
صغرها ، وطن له أهل ، وله ضحايا تحت السماوات ...
تأخذ كرة الجغرافية ، تقلبها بين كفيك ، فتجد ان
اوطان الخلائق ، من كل جنس ، تعجُّ بالمشتاقين منا الى
تلك النقطة الصغيرة - كأنما الدنيا بها إبرة الشمال ، تتلفَّت
اليها ، أبداً ! ثمَّ يُمثَّلُ لخاطرك ، وانت بين ألوان الممالك ،
تأريخ البشر ، وفهرس الأزمنة ، فتجد ان هذه النقطة
الصغيرة هي قبلة ، اليها تُشدُّ الرِّحال ، وتخبُّ الجيوش
بالشرع ، والحديد . ثمَّ تنظر الى ضالة ما بين هذا الجبل
اللبناني ، والبحر المتوسط - حيث يكاد الشبر يطوي

المسافة ! - فتسأل نفسك : على أي شيء تزدحم الممالك ،
وتتواقع الرّجال الغريبة ! ! وترى أنّ هذا ، قيد الشهر ،
لا يسع المشتاقين من أهله ، يوم يرجعون اليه ، فكيف به في
زحمة الفتوح ، وجيوش الأمم !

وجبل اللبنانيّين لا تزخر على جنباته المصانع ، ولا
يحفل جوفه بالمعادن . بل جملة ثروته : أفق متضاحك ،
لا يغيّم ، من فوقنا ، في حقول السنبل ، أيام المواسم ، وأنهار
لا تبخل علينا بقطرة ماء ، في بطون الأودية ، وعطفات
الدروب ، وربوات لا تعبس لنا ، في القيظ ، وقد أوحش
الشاطىء ، وحميت الرّمال ! فكأنّ هذا الجبل من أخيلة
المتصوّفة ، أهل الصمت والعزلة ، حين يقعدون جنباً ،
لا شيء بين يديهم إلاّ الجمال ، والعبادة ، ودوران الايام ، في
مهل ، أو كأنّه من أخيلة « جمعية الأمم » ، في قصيدة السلم
الكبرى ...

وإذن ، فعلى أيّ شيء تقوم الضجّة ؟ وأيّ شيء ،

من أشياءنا، تنتفع به أمم الدواليب، والعمال، والنوتية؟
أفعين الماء، المسلسلة في ثغرة الجبل - وهي تكاد لا تروي
قطيع الضأن، في عطش الظهيرة - تروي من لم يروه
الأوقيانوس، ذو الطول والعرض؟! أم ان سماء الجبل
- وهي تكاد لا تسع عندلة العندليب، في عيد الصحو -
تنفسح لقصف المدفع، ورجة الحديد؟!

ونحن، بازاء هذا الأبيض المتوسط، على علوِّ مئات
الأذرع، وعلى مقربة من مطلع الشمس المشرقية، بين جوِّ
زاهي الألوان، كأنه أجنحة الديوك، يبعث الشعراء،
والعشاق، والزاهدين، وارض ذات عتق، واسرار، واصدأء،
كأنها كتاب « ألف ليلة وليلة »، فنحن في جبل الخيال،
هذا، أجدد الناس بالفلسفة، والشعر، وبقية فنون الكلام!
نجدل الناس - في زمن « الفواصة » - بأمثال الناصري،
الذي وُلد في قرية بيت لحم، قبل أن تولد « جمعية الأمم »

في مدينة جنيف! ونحتج عليهم - في زمن « الرّاديو » -
بأحاديث القرشيّ، الذي هبط كتاب السحر على كتفيه،
قبل أن يزفّ هتلا كتابه لأوروبة!

تلك عدتنا في حومة الحقوق، يوم يتقلد كلُّ منازل
سلاحه! تعصف النخوة، دون الحياض، بواحدنا، فيتناول
قلمه - إذ هو لا يستطيع أن يتناول سواه، ممّا يقطع،
ويفري. ويظلُّ يغمسه في دواته، وفي صدره، حتى يقع
قتيلاً، بل قلّ شهيداً - يرحمك الله! أفلا ترى كيف نحل
جسمه، وذاب سواد عينيه، وتقلصّ فيه، من لعوة الجوع؟
وسيان، في تلك الحومة، من مات بالنار، ومن مات
بالقلم! إذ انّ غرض المجد منك أن تستطيب طعم الموت،
يوم يخاف أن يموت الوطن... وعلى مذبح النخوة يستوي
شهيد سقط خلف المدفع، وشهيد سقط خلف الدّواة!
ولكنّ الحقّ هو غير ما يظنّه أهله. فهو يقع على مقدار
ما تطال اليد، لا على مقدار ما يطال اللسان. لذلك يقال

فينا اننا امّة خيال وكلام ، ولذلك يموت شهداءنا عبثاً ،
وتذهب قرايئهم هدرآ ...

...

وهذا ، بعدُ ، شهيد جديد ، يرجع ، اليوم ، الى النقطة
الخضراء الصغيرة ، في خريطة الجغرافية . ولقد مات من
أجلها ، وسقط القلم من يده ، وهو في معمعان الواقعة ،
دون أن ينفعها قلامة ظفر ! مات كما استطاع أن يموت ،
أي خلف الدّواة ، لا خلف المدفع . قدمه الطليل ، الأحمر ،
هباء مضيّع على مذبح الحق ، وهو عطر ، وطيب ، وضحيّة
سمينة على مذبح الشرف !

فأهلاً بواحد آخر ، من شهداء المستطاع ! ولينزل على
مثل أجنحة الديوك ، من جونا الزّاهي ، وعلى خضر
الجنان ، وزرق الينابيع ، من ارضنا . حتى اذا أنس ، وقرّ
قراره ، بين وسوسة الماء ، وحفيف الورق ، عاد الى حلم
مشرقي ، طويل - لا ينقطع ، هذه المرّة ، الاّ يوم ينقطع

الأبد! - وهكذا تكون أرضنا الحسناء هي مهد الخيال ،
ولحد الخيال ، في آنٍ معاً ، وتتمُّ المطابقة !

...

أما جبل اللبنايين فإنه سيظلّ جبل الخيال ، هكذا ،
حتى تطبق السماء على الأرض ! اذ ليس في وسع الأيدي ،
ولا في وسع القلوب ، ان نزل جباله ، ونجتث شجره ،
ونمسح سماءه ، ونمسك الماء في يناييعه ، كما نغدو بعدها
في غير الخياليين !

بل نحن نجد انه في وسع الصبر أن نظلّ هكذا ،
حتى يصبح الناس مثلنا ! يومئذٍ يغمر الخيال الانساني ،
الأعظم ، كرة الأرض ، هذه ، وينفخ نسيم الرّخاء على
جوانبها ، ويهبُّ في وجهها طيب الحقّ - ذلك يكون يوم
تغدو « جمعيّة الأمم » وهي ليست بذات خيال ...

ويومئذٍ يامع ، خلل العشب ، في زاوية وادعة ، من
قرية تحت « صنين » ، زهرة حمراء ، كنقطة الدّم ، تنبت

حيث أنزلنا المكرزل في التراب ، وتخصَّب ما هناك بألوان
الشهادة — ويكون ربيع شهدائنا قد أخرج ، في كل
المنابت ، أزهاره — فيرفع الجبل ، في الجوِّ ، رأسه المكمل ..

كتاب العراق

« في تأييد ابراهيم صالح شكر »

سقى الله ليلة دمشقية ، كانت لنا على « الربوة » ،
وبساطاً ، وسامراً ، وحديثاً تحت الشجر ، يأخذ بأطرافه
بغدادية من « باب الكرخ » ، ودمشقية من « القنوات » ،
ولبنانية من هذه الهضبة ، التي على الماء ، في عالية
« الشوف » . ويا عجب العاجب ! ثلاثة رفاق ، من ثلاثة
آفاق ، ولا يعوزهم ، من أول الليل حتى شهقته بالصبح ،
ترجمان ... فلما ارتفعت الشمس ، ووقف قرصها بين
ذينك الجبلين ، المتقابلين ، على الضفاف ، قمنا نحن ، والأنهار ،
والشجر ، وجنايب الوادي ، نسجد (او كأننا نسجد) لأحدى
الاختين ، الكریمتين (شمس الله ، وشمس العربية) ، اللتين
تفيضان فيضهما على بغداد ، ودمشق ، ولبنان ، في آنٍ معاً !

ولما غدونا في بعض الطريق ، وقد رجعنا أدراجنا ،
والأرض حولنا عاشبة ، مهيبة ، أشبه شيء بمناديل مزخرفة ،
من حرير الصّين ، فهي تحرك الخيال ، وتحرك الأمل ،
قال ابراهيم :

« مساكين جماعة الجغرافيين ، واهل التخطيط ، حين
يكون أمرهم مع هذه العريّة ! يصوّرون الحدود ،
والخطوط ، وهي تجاوز الصور ! وياربّ كلمة من الشعر ،
يهتف بها قائلها ، في بلدة غامضة ، من ارض العرب ، فهي
تتخطى الصحاري ، وتثب الجبال ، وتتطير الى الفراتين ،
الى ما وراء النهر ، الى الجزيرة ، الى النيل ، الى عدوة
افريقية ، الى الساحل الشرقيّ ، من المتوسّط ، الى آخر
ديارهم ، تحت سماء الله ، لا يحول دونها حدّ ، ولا حجاز ! » .
فقال صاحبي الآخر : « ولا حجاز لبنان ؟ » (يلمح هنا ،
في أطف المعاريض ، الى إشفاق بني قومنا ، اللبنايين ، على
جبلهم ، والى شدّة خوفهم عليه) . قلت : « ولا حجاز لبنان ! » .

وكان ذلك أوّل عهدي بابرهم صالح شكر .

...

تلقى ابرهم ، يومئذٍ ، فترى رجلاً ربعة ، الى الطول ،
قد هدف للأربعين ، يجتمع عليك منه ضخامة تقطيع ،
وشدة أوصال ، وعظمة تجاليد ! ثم يسكن أوّل ذلك ، فما
تشعر إلا بعينين سوداوين ، واسعتين ، قد تقاسمتا لطف
الشعاع ، فوقهما حاجبان ، دقيقان ، بينهما خلل ظاهر ، وبجبهة
رحبة ، وناصية سوداء ، مجتمعة في كثافة ، وجمودة ، وبأنف
وسط ، وفم وسط ، وحية ، من قصر الشعر ، وقلته ، تدور
هناك ، كالظلّ الرقيق . رُكّب ذلك في وجه يضرب الى
السُمرة ، فيه تغضين ، وفيه لمعات من عصب مكدود ،
ونفس معتصرة . فثمّ شيء محبّب ، قريب المتناول ، كأنّه
الملاحه . الله ! الله ! في تلك المرأة الفريدة . لا الحمام على
عود ، ولا ريشه على العود ، أشجى ممّا يحدثك به وجه
ابرهم ، بين الصمت والكآبة . . . فانظر - يارحمك الله ،

هذا كاتب العراق، غرّيد الحرّية، ومغني رقائق الفصاحة،
في ظلّ النخيل، على دجلة. قطرة من قلمه ترجح بلجج
الخبز! وصيحة، في البطحاء، من صيحاته، هي أشدُّ
هولاً، على جنبايتها، من جلجلة الرعد! هذا الذي اقام جيلاً،
وأعد جيلاً، وتقاسم، هو والغيث، في ملك «هارون»،
فخر الربيع الجديد! هذا ابرهيم صالح شكر! فما باله يقبل
عليك، اذ هو يقبل، وكأنّه متبرّم بالناس، ممتليّ الصدر
بالجفاف، والجزع؟! ثمّ ما بالك، انت، تقطن في طلعتة
عليك، لارتوائه باللوعة، وتشعر لغمطه في العيش! أترك
تحسُّ لكلّ كاتب هذا الاكتئاب، وتشعر عنده لهذا
الحرمان (حتى كأنّ صناعة الحروف، وهي التي من غاياتها
تذكية القلوب، وتعهدها بالانشراح، كفاؤها الحزن،
والغبين) ام انك لا تحسُّ ذلك، ولا تشعر له، الا اذا بدا
لك ذلك الكاتب!

أما اذا أخذ المجلس زخرفه ممّن حضر، وطفق ابرهيم

يشقق الحديث ، بين النعمة الرخيمة ، والاشارة المستملحة ،
رأيت طلاوة ، ورأيت مطايبة ، وخوضاً في الحديث ، هو
اكثر تخلاً الى حواشي الروضة المطورة ، منه الى
حواشي الكلام ! فتم ما شئت من غزارة مادة ، وسعة
رواية ، وحسن تصرف ، في مختلف المحاورات . وتعجب ،
عندئذ ، كيف ينبعث ريحان الحديث من شعل الاحشاء ...

...

ولقد كتب الله لي ، في تلك الليلة ، على « ربوة »
دمشق ، أن يجري بيني وبين ابراهيم كل مستمع ، وأن
اتشمم ، في مهلة ، ريحان احاديثه ، وأن أرى بعيني كيف
عاد بالجزع ، في عالم الحوادث ، كاتب نفتح الغبطة في عالم
الفنون ! ثم اني رأيت ، لأول مرة ، في تلك الليلة ، كيف
يستطيع ، في صدعات الرأي ، والهوى ، بين ملتي العرب ،
أن يزرع ، زرع الخير ، من يقايس الفوز بالمسمى ، ويجعل
المطلب على مقدار الممكن ، ويفيض الى عقول الناس من

وراء قلوبهم . . .

كانت عروس الغوطة ، دمشق ، قد نفضت ، يومئذٍ ،
ثوبها ، بعد ايام الحديد والنار ، وهدأ روعها ، الأ قليلاً ،
واخذت تنقل قدمها من جمر الثورة الى ورد « الجمعية
التأسيسية » . فمن رأى دمشق ، قبل ذلك ، وهي تتدفق
باللهب والشواظ ، والصخب العالي ، بين البيوت ،
ومغامض الشجر ، وراء بردى ، لا يستطيع ، في ذلك
السمر الشهي ، وهو على مقربة من مضجع العروس النائمة ،
أن يصرف لسانه عن حديث « الالياذة » الدمشقية ! فحدثنا
بنعمة الله على دمشق طويلاً ، وتذاكرنا إجادات معلّمتها
على كعبة الفخر ! ثم ترمى بنا الكلام الى ذكر نصارى
العرب ، وحال اللبنانيين ، منهم ، بقضيتهم ، في بلاد الجبل ،
وبقضية اخوانهم في الآفاق العربية . فانطلق ابراهيم
يتوسّط في هذا الصدد ، بين لوم ومعدرة ، في أطف
ما يكون التاميح الى الإتهام ، والتنويه باسم الثقة ، مفصلاً

ما كان ، هنا وهناك ، بعد انتقاض العقدة ، وتصدع العصا ،
من أحوال ، وأفعال شتى ، عفا الله عنها ! ثم رأى أن لا يمهلهما
حتى نقول ، فعطف على التأريخ ، يعرض لنا منه أيام الشمل
المجتمع ، والكلمة المتفقة ، بين الملتين ، في العرب ، ويعجب
كيف يرمى بتهمة الرضا من العين بالأثر أولئك الذين منهم
العباديون ، سادة الحيرة ، وساسة الأمر ، في ملك بني ماء
السماء ! ومنهم الأخبار ، من بني عبد المدان ، الذين بسط
لهم رسول العرب برده ، فجلسوا ، بين العيون ، على بساط
العزة ! ومنهم خطيب العرب ابن ساعدة ، وطبيب العرب
ابن كلدة ، وحكيم العرب ابن صيفي ! ومنهم ابن ربيعة ،
مرقق الشعر ، ومقصّد القصيد ، وابن وائل ، مضرب المثل
في المنعة ، والأخطل الذي نُودي ، في السكك ، بامارته
على الشعراء - والصليب منبطح فوق صدره ! ومنهم الملوك
من آل جفنة ، في حوران والبلقاء ، اصحاب « البريص » ،
الذين سقوا بردى « يصفق بالرحيق السلسل » . . .

ومنهم ابناء سرجون، ووزراء التدبير في بلاط أمية! ومنهم
بنو جذام، وبنو كلب، قواد معاوية على الرايات، ومحضرو
اهل البداوة، في الأطراف! ومنهم أشراط البحر الاحمر،
وقادة العمارة العربية الأولى، في فتح قبرص، ورودرس،
وفي قهر عمارة بيزنطية! ومنهم اصحاب « الصليب ومار
سرجيس... »، الذين أخذوا ليزيد، في الحجاز، نار
ابن الزبير! ومنهم أبطال « الأخطية » الكبرى (خف
القطين)، الذين رمى بهم ابن مروان على المتألمة، في عراق،
وحجاز، وعادوا برأس ابن الحباب، فوق رمح! ومنهم
اصحاب العلم الهندسي، الذين بنوا الجامعين: الأموي
والاقصى، والقصرين: الحير، والمشقى! ومنهم المعربون،
والمؤلفون، الذين حاكوا باقلامهم وشي العربية، على
فلسفة آثينة، وحكمة رومة، من زمن معاوية الأموي،
الى زمن الواثق العباسي! ومنهم الرهبان، الذين آووا لغة
محمد، وأنزلوها في الأديار، والبيع، منازل الأمانة، يوم

تدفق على ديار العرب طغاة العجمية ، أمثال هولاء كو ،
وجنكيز ، وتيمورلنك . . . الى آخر ما سرد ابرهيم من
الأمر النصراني في تاريخ العرب ، مما يردُّ القلوب الى
التذكار ، والحنين . واذ هو فرغ من ذلك ، قلنا له : « لك
الله ! ملأت المكان سحراً . . . فلقد رأينا جمال أزمنة ،
وروتق ممالك ، وأنسنا أمة ، وجامعة ، واتحاد وجهة » . ثم
قلنا له : « لك الله ! مرة ثانية . هكذا يكون الدخول من
أبواب القلوب ! » . . .

. . . .

فمن كان يبكي ، اليوم ، على ابرهيم ، لقلم تركه ، ولا
من يستطيع أن يغمسه في دواة من نار ، ذهاباً مع حرية في
في النفس ، تملك على صاحبها اللسان ، والفكر ، وتلجج به
في محيط الأحزان ، والآلام ، والعداوات ، وشدة الغمط ،
والفاقة ، مما قد كتب على بسلاء الرأي ، في هذا المجتمع
الانساني ، من الذين يضيئون العقول ، والقلوب ، كالمشاعل ،

ثمَّ يحترقون في زاوية مظلمة ، من عالم الفداء ! أو كان يبكي
عليه لطريقة في الكتابة ، هي كالموج في مجمع الفراتين ، في
الوادي : سلاسة وصفاء وحلاوة حركة في الرضا ، ورغوة
وتدفق وضوضاء في الغضب - مردوداً ، كلُّ اولئك ،
الى رصانة جمل ، وشرف فرائد ، والى ملكة ، من اشدِّ
الملكات انطباعاً على الفصاحة ، فمن كان يبكي على ابرهيم ،
من أجل هذين ، فاني بكيت ، فوق ذلك ، لعربي ، رأيت
منه ، في ليلة « الربوة » ، كيف يكون الجمع الصحيح بين
رياح العرب . وها انه قد مضى علينا نحو من خمس عشرة
سنة ، منذ لم نلتق ، وأنا لا أجد ، في ذلك ، من يأتي العجب
الذي أتاه !!

ثمَّ إني بكيت لأخ ، قد عبر الجسر الى الأخرى ،
وبقيت انا في الدنيا ، أنظر منها ، وأسأل ، بعد المعشر
العابرين : ايُّها أضحت دار الأجابة ...

الطاب الخازني

« في تأيين الشيخ يوسف الخازن »

وكان ، رحمه الله ، قد تضايق عليه صدره ، في
سنة ١٩٤٣ ، فرحل عن الفرنسيين ، في لبنان ،
ونزل على الايطاليين ، في عاصمتهم ، ثم قضى هناك
أجله .

في اليوم الرابع عشر ، من شهر نوّار ، سنة أربع وأربعين
وتسع مائة وألف ، انظفاً في المدينة الابديّة ، بين أسفار
السمعانيّين ، وألواح رافائيل ، وتماثيل ميكال آنج ، وعلى
مقربة من دهاليز « المعترفين » ، والشهداء ، سراج لبنانيّ
حبيب ، اضاء العقول ، والقلوب ، على جبلي المقطم والأرز ،
خمسين عاماً ، ونيّفاً ، وتذكر الناس بموت هذا الطائر ، المحكيّ
في النثر ، قول الطائر ، المحكيّ في الشعر :

يقولون لي : ما انت في كلّ بلدة

وما تبتغي ؟ ما ابتغي جلّ ان يُسمى ...

ودخل في سرِّ التأريخ ، وفي لغز العباقرة ، اسم جديد !!
ولعمرك : انَّ من حقِّ الناس أن يتذكَّروا بموت هذا
الكاتب الشريد الطريد ، ذلك الشاعر الشريد الطريد !
فانَّ في حمل الرغبات الجامحة ، ودوام التطلُّب من الزمن ،
وفي الملالة من المقام ، والعزوف عن الطراوة ، وفي التعب
من التفكير في الدنيا ، والمهجة ، والرجوع بالاقلام الخائبة ،
وضياع الرجاء من « سيوف الدول » ، والرحلة عنهم ،
والنزول على « كوافيرها » ، يجد الناس ، اليوم ، مشابه
واضحة بين ابي الطيِّب المتنبِّئ ، الذي لا تُفتح العين ،
بالمهين ، على من يشبهه في جليلة ، ويوسف الخازن ! فلقد
مضى الرجل الى ربِّه ، ورُفِع حجاب المعاصرة ، وأسقطت
اسباب الحسد ، وطويت مودَّات ، ودُفنت ضغائن ، وجاء
الموت بصفاء الحقِّ ، وخشوع الضمير ... وانه لمن الحقِّ
ان يُذكر المتنبِّئ بالخازني ، في هذه الشِّيمة العبقرية

الغامضة ، التي يُختم على سرّها في الحياة ، ولا يُفكُّ لها
معنى في الموت ، والتي من أجلها عاش صاحبنا على قلق ، في
الكتابة ، والسياسة ، والرحلة ، والاقامة ، والتقلب ،
والمعاش ، ومن أجلها لقي صرعه القاضية . أمّا الذي ظنّه
الناس منه سأمًا ، فقد أصبح ، في باب شدوذ العبقرية ،
واستغلاق اشياءها ، نشاطًا ، واصبح البطء سرعة ،
والإغفال مراقبة ، والالتباس وضوحًا ، كما اصبح التردد ،
بين شيئين ، امضاء نية ، وقطع عزم ! هذا ما يقال له :
مرض العبقرية ! - مرض اهل التميز في الطينة ، وهو
الذي يُؤثر على الصحة ، ويُضنُّ به على المعافين من الناس .
بينما انت تراه ، في عالم الحوادث ، التيات مزاج ، اذا بك
تراه ، في عالم الفنون ، قيام عافية . وبينما تراه في ذلك مدعاة
للتهجين ، اذا بك تراه ، في هذا ، نغمًا ، عظيم الشأن ،
لا يحيط الوصف بمعاني مدحه !

وإذا كان قد جاز لنا ان تقرر اسم يوسف الخازن الى

اسم واحد الآحاد، ابي الطيّب، فانما الجواز، في ذلك، مردود
الى كون الخازني قد اصابته العلة . . . فدحّه ثم هجوّه،
وثقته ثم اتّهامه، وعزّمه ثم انثناؤه، ورغبته والملااة،
وصبره والجزع، ورضاه والكره، الى آخر هذه الاطراف
المتعارضة - اصف ما كان من تحريره الشذوذى العجيب
لكتابته، حتى لقد كان يتخلّى، في الأحيان، لتمحيص
مسألة، او استخراج لفظة، ثمّ تبدوله هناك بداءة، فيترك،
ثمّ يعتزم، فيزاول، وهكذا من احوال، وافعال، شتى،
كأنّ العبقرية خطرات، او دفعات غيث متقطّعة! فهذا،
كلّه، شواهد ناطقة على الأمر العظيم!

وهكذا تكون الرّزية يوسف الخازن رزية بواحد،
هو في الطبقات العلى، من النبوغ القوي، الذي لم يخرج
الى حياة متموجة، دائمة الكرّ، فحسب، بل خرج الى
فنّ من فنون الكتابة، ليس وراءه اليوم في التنسيق،
والعدوية، وغزارة المادّة. اي ان العبقرية قد تلقت قلمه

من كلِّ جهة ، كما تلقت حياته . واذا هو ، فوق الكاتب العجيب ، في الأدب ، والسياسة ، اصمعيُّ لبني قومنا اللبنانيين ، في انسابهم ، وآدابهم ، واخبار اولهم ، غاية في التتمير ، والحفظ ، والتفريغ من أوعية مختلفة . واذا هو فوق الكاتب ، والرواية ، ظريف اروع ، مدَّ بساط النكتة ، في ادب العصر ، ونادى على الأُنس ، فتجمعت عليه الارواح ، وتقاتلت المسامع ، واصبحت النكتة « اخازنية » ، بفضلها - وهي المنسوبة الى اريحيَّة آبائه - عربيَّة عامَّة ، تطيب المقاطع في لغة القرآن ، بعد ان كانت لبنانية خاصة ، لا تتمدى المحاضرات في بلاد الجبل .

...

ثم تذكّر الناس ، بموت يوسف الخازن ، وهم اليوم ، في لبنان ، في حديث الاستقلال والكرامة والحرمات العامَّة ، انَّ ذلك اللسان ، الذي أرهن التراب الايتالي ، لم يقنع بالتقلُّب على يتامى الدرِّ ، في صناعات الفصاحة ، بل

طلما كان هو الطليق ، البليل ، في توفية حقّ الوطن ،
لا يتلثم ، ولا يتلجلج ، ولا يعترضه ، يومئذٍ ، شيء من
شفاعة تأريخ خازنيّ ، ملآن ذمماً ، أو شفاعة تأريخ
لبنانيّ ، ملآن موثق - ذلك يوم كان التلميح الى الحاجة
العامّة ، في نوبة الحرمان ، يُعدُّ خروجاً من صداقة ، لا تباع
بكثير ، ودخولاً في عداوة ، لا تُشرى بقليل - بل هو
كان ، وأبيك ، يُعدُّ من قبيل أخذ الفريسة من بين شذقي
الأسد ! فكيف ظنك بفصول مدبّجة في جريدة ، وخطب
محتشدة في مجلس نوّاب ! فما ظلم الشيخ ، في دفع المغرم ،
وجرّ المغنم ، لكنّه اشبه آباءً ، وجرى على أعراق ، وكان
قوله عند كل ملّمة « هأنذا » ، على انه من أجدر اللبنانيين ،
في تأريخ القيام بالملّمات ، بقوله « كان أبي » . . . له النسب
الحرّ ، في كلّ قطعة ، من المجد الجبليّ ، المحبوك بماثر آبائه ،
وقد وضعوا الأساس ، وشادوا الدعائم ، وحاطوا البناية
بالسيف ، وبالسياسة ! من ابي صقر ، ابرهيم ، الذي اطلع

من نافذة بيته ، في « بلونة » ، شمس الامارة « المعنيّة » ،
وكانت ، في حجره ، قد تعلّمت التصعيد في فلك الحكم ،
وتقلّد « الكتخدية » ، في دولة « ابن قرقاس » - والأيادي
قروض ! فكان هو مدبر التخت ، بين بعقلين ودير القمر ،
عليه المشورة ، واليه الخراج ، ورفع الحوائج . حتى اذا
أغارت خيل « سلطان البر » على بني سيفا ، بين الموج
والصخر ، في « نهر الكلب » ، وخفقت بالنصر رايات
اللبنانيين ، نُودي في كسروان بابن الخازن اللبناي ، بعد ابن
سيفا الكردي !

الى ابي نادر ، خازن ، الذي ورث « الكتخدية »
تالياً عن سابق ، وسعى لآمال نخر الدين في التوسع ، بين
رسل « توسكانة » ، وقصّاد الفاتيكان ، ومكّن القدم في
المقاطعة الكسروانية ، من نهر « الجماني » الى خليج
« المعاملتين » ، بعد ان كان المعني قد نزل عنها ، لبني سيفا ،
اعواماً متعدّدة ، فردّ اليها النافرين ، ومهد فيها للأديار وبعثات

التَّعليم ، ووقف الضَّيع ، وبنى البيع . ثمَّ تولىَّ جبيل ، وجبَّة
بشرِّي ، وفعل فيهما تلسم الفعلات ! حتى اذا حمل الشراع
نخر الدين ، الى عاصمة « الغراندوكة » ، اصبح ابو نادر قيماً على
« يونس » في الامارة ، فكان الوزير في الحضرة ، والامير
في المغيب . ثمَّ غدا ، يوم زلزل التَّخت بصاحبه ، رفيق
البلوى ، في مغارة جزين ، ورفيق القيد ، في قلعة دمشق ،
وصحَّ فيه المثل : « أوفى من عوف ، شدَّ في الشدَّة ، وما
تراخي في الرخاء » .

الى ابي نوفل ، نادر ، الذي ورت في جاه المعنَّين ،
واستحدث ، واعتزَّ في قلعة « أسمار جبيل » ، اعتزاز ابن
عادياً في الأبلق ، وكان « للكتخديَّة » ، ولكلِّ عظيمة !
فعاون قيساً ، في برج بيروت ، على يمن ، وخرج « بكفاليريَّة
رومة » ، يوم أمر الناس بتغيير اللباس ، والركوب ، في سيف
لا تدخل شفرته في غلافه ، وفي طوق من جوهر ، ومطرف
من شقق الديباج ، يجرُّ في الارض ! ثمَّ ألقيت اليه

الفرامين من فرسايل ، والبرآت من توسكاته ، وصرف
في قنصلية فرنسة ، وفي قنصلية البندقية ، ثم وطأ ما بين
« الأزواق » ، وشعفات حاريسا ، للبطاركة ، من موارنة ،
وملكيين ، وسريان ، وأرمن ، وكان ، لهؤلاء جميعاً ، ما قاله
ابن غزيرة في حماسيته : « أما أفرشت فأنامت . . . » ،
فسكن روعهم ، وأنسوا . ثم قام بأمانة العلم ، فكتب
« تاريخ فخر الدين المعني الثاني » ، وبأمانة الحضارة ،
فبلغ عصره ، في تجارة الحرير ، وصناعة النسيج ، والنقش ،
ما كان في نفسه .

الى ابناء ابي نوفل الثمانية ، وهم ، هم ، سقى الله عهدهم ،
من كل سابق في الحلبات البنائية ، مجرد ان يتمثل فيه بما
قاله الشمّاخ في أول من أرّخ بالهجرة :
فمن يسع ، او يركب جناحي نعامة

ليدرك ما قدمت بالأمس ، يسبق
والذين جرى دم أوسطهم في عروق يوسف ، ودخلت

فيه اخلاقه على حب الكرامة، وحماية الزمار، وخرج رأس
سيفه في قلم حفيده...

هذا هو الخازني الذي تبكي، اليوم، على قطعه
وطواله، في ممتعات الفصاحة، لغة الجاحظ، وتذكر أمة
اللبنانيين قلمه، في ظل الجمهورية، وسيوف آباءه، في ظل
الامارة. وسلام الله عليه، وعليهم، يوم يلج الشوق بالناس
الى الوجوه الحبيبة، والأيدي المفضلة!

كلمة النقابة

ألقاها المؤلف ، باسم نقابة المحامين ، في مناقحة
المحامي الشيخ عزيز الهاشم .

الى هذه المناحة التذكارية ، المهيبية ، التي تُعقد على
اسم فائت حبيب ، قضى حياته في طلب مرضي الحق ،
على شطري العلم والعمل ، أحمل ، الآن ، كلمة النقابة ، في
ابنها المرتضى عنه ، تزكيةً لهذا الاجماع ، في الأمة ، على
إكبار مصابه !

ولقد شجاني أن اكون ، انا نفسي ، حاملاً كلمة النقابة
فيه ، فاني بمكاني منه ، في قرب النسب ، وفي الذمم ، وفي
حرمات ، وأواخي ، وأسباب تُرعى ، لأحق أن اكون
المعزى ، القاعد في المناحة ، لا المعزى . ولكن في كلمة
النقابة المحترمة من التّشريف لاسم عزيز ، ومن قيامي بها
أتحدّث بعزير ، وأنوّه بقدره ، وأشيد بمناقبه ، ما احسّ ،

معه ، اني اروح من وجداني ، وأطرح من ثقل همي !
وهكذا أجد لنفسي ، وراء هذه الرسالة الروحية ، التي
اتحمّلها اليكم ، وجه الشجوة ، ووجه التخفيف من الشجوة ،
في آنٍ معاً .

ويرحم الله عزيزاً ، فانه اقبل ، منذ أول نشأته ، على
علوم الحق ، وصناعات البرهان ، وعبّ من تلك الينايع
العقلية ، ما شاء الله له . فلما امتلأ ما بين فؤاده وفمه ، بطبع
ريان من حب الحق ، وحب الحرية ، خرج الى العمل ،
فوجد ان ذلك الطبع السّمح قد ملك عليه عنانه ، وانه قد
غدا ، هو ، ينظر الى كل أمر ، من خلال الحق ، والحرية .
لا يرى هذا إلا بهذا ! سيان عنده ، وقد وقع له الترجيح ،
في المسألة ، أطلع برأي تتحفّز له المسامع ، او انفجر بأخر
تنكمش دونه ! وكان أن وجد في المحاماة فسحة ، يُخلّى فيها
بين المرء وما اختار لنفسه ، من المشارب ، فعاف عزيز قيد
المنصب الحكومي ، من يومئذ ، ونزل علينا في المحاماة ،

في هذه الفسحة الحرّة !

وكان رصيفنا موزع الخاطر ، في كلّ يوم ، بين
دعويين : دعوى موكله ، ودعوى بلاده ! فبينما أنت تراه ،
في مجلس الحكم ، يفصل النصوص ، ويفرّع المسائل ، اذا
بك تراه ، في مجلس السياسة ، يلطف المداخل ، ويوثق
المطالب . فانّ دعوى قومه ، بحريّتهم ، وحقّهم ، لم تكن
عنده أقلّ شأنًا ، ولا أحقّ باهتمام ، ولا أجدر بتعهد ،
وجهد فكر ، وإعانة رويّة ، من دعوى موكله بحريّته ،
وحقّه . فكان رصيفنا محامياً عمره ! يدافع ، ويناضل ، ويقلب
لسانه فوق البراهين ، والحجج ، عامّة يومه .

أمّا طريقته في الصناعة ، فمزيج من اللين ، والكيس ،
والاطمئنان ، وبعد الأناة ، الى ظرف حلو ، وذكاء حاضر ،
وحسّ خفيف . آية في الجدل : لا يرفع صوته ، بل يرفع
رأيه ! كلما عتا خصمه ، وتعسّف ، رأيته هو - وقد صفا ،
وراق ، وأفاض ما عنده - أشبه ما يكون بالجدول الرضيّ ،

الذاهب في ألفاف الغاب - يفعل فعله ، ولا جلبة ...
ولم يكن ، رحمه الله ، في الفصاحة العربية ، على ما كان
عليه في الفصاحة الفرنسية . رجحت خلف لسانه كفة
« راسين » ، وشالت كفة « الجاحظ » ! يطلع في حلقة
المحكمة ، فلا يزخر بالعربية عبا به ، ولا يمتلئ فيه بصنوف
بلاغتها ، كما هي الحال عند المتخلفين لها . فأما إذا خلا بقلمه ،
بعيداً عن الارتجال ، رأيت ، ثم ، ثراً عربياً ، سائغاً ،
لطيف الطلاوة ، رخيم الحواشي ، مرجوعاً فيه ، كله ، الى
الطبع .

وكان عزيز ، في الرُصفاء ، أثبتهم على عهد ، وألطفهم
في ظل ، وأسرعهم في تعمُّد المؤاخذة ، وأمدَّهم في بذل
المشورة ، واصطناع الجميل . رصيف ، بأجمع ما في هذه
الكلمة من معاني الحرمان !

أما المكسب الشائن ، وأما الوسيلة المنخفضة ، فذلك ،
كله ، كان في ناحية ، وكان عزيز في ناحية أخرى . ثناه

عنه إباء يتعظم عن الدنيا . فكان إن أخذك من عزيز
جانب خافض ، وبال ، وليان ، فجأك منه ، في مواضع
الأنفة ، رجل جمع ثيابه على ناب ، وظفر ، فتسأل ، حينئذ ،
نفسك : من اين جاء الأسد ؟ ...

ذلك هو فقيد النقابة ، الذي ما برح ذكره ملهج
الأسنة ، بين ابنائها ، والذي تحتسب فيه أجر الأم
الشاكل ، وتسأل الله أن يجري الى روحه ، في دار العدل
العالي ، ثواب حبه للحق ، وعمله له في دنيا الباطل !

في سبيل الصواب

الى روح صديقي ابراهيم عبدالقادر المازني .

وهو الذي كان ، في زماننا ، من اعرف
كتاب المصريين كيف تجعل القاعدة بازاء الطبع ،
ويجعل الفن بازاء الطبيعة ، والفكر بازاء الحياة .

رأيت لأبي الوليد الوقشي :

برح بي أن علوم الورى

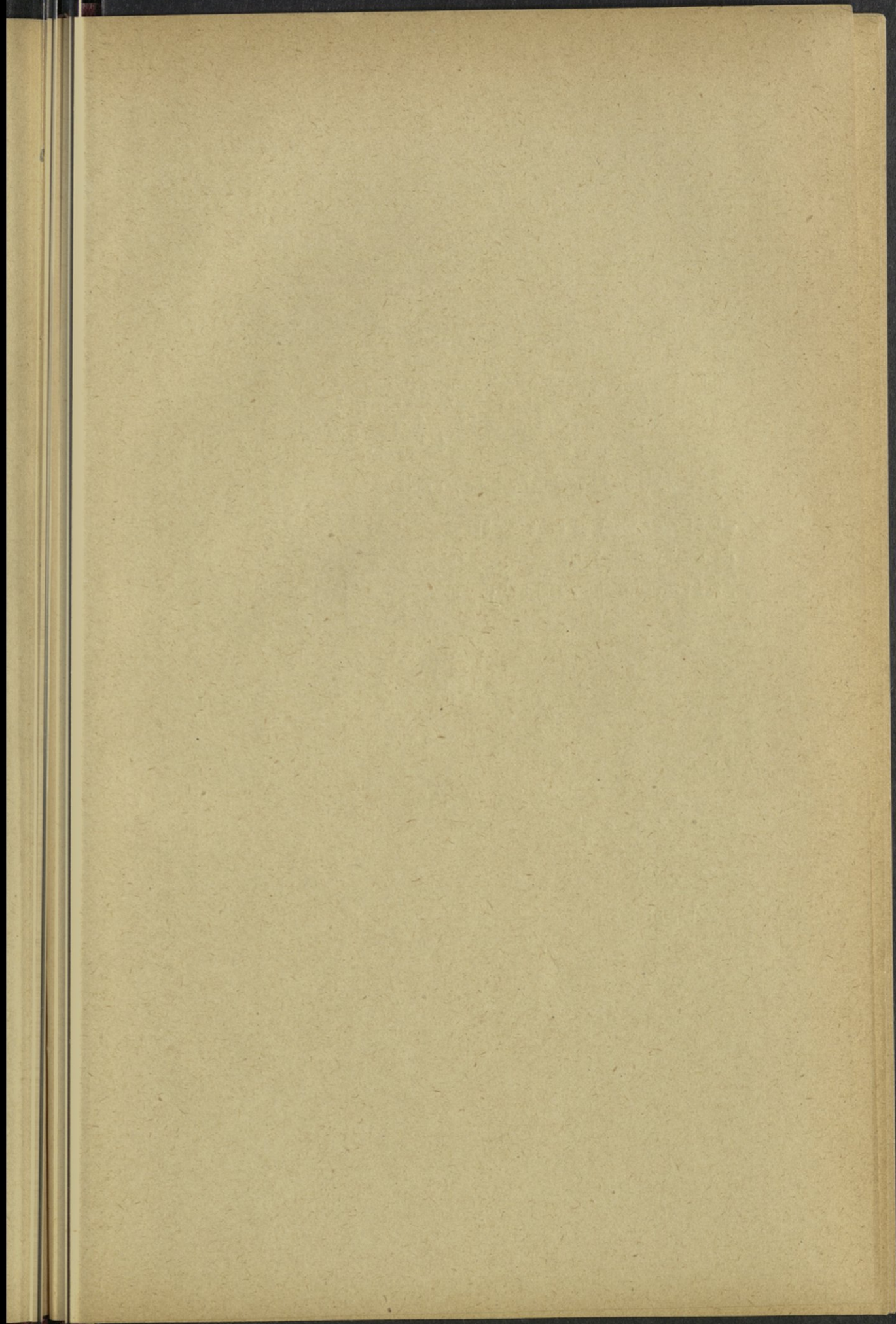
علمان ما أن فيهما من مزيد

حقيقة ، يعجز تحصيلها

وباطل ، تحصيله لا يفيده

البلوي

في « ألف بآء »



حب التغيير

أُقيمت في « محطة الاذاعة اللبنانية » .

آية هذا الزمن : حُبُّ التَّغْيِيرِ ! ومن هنا ما ترى ،
اليوم ، مثلاً ، من حُبِّ النَّاسِ لِلرَّحَلَةِ ، وتقَاتِلُهُمْ عَلَى الْجَدِيدِ .
ولقد كان النَّاسُ ، قَبْلَ زَمَانِنَا ، يَسِيحُونَ فِي الْآفَاقِ ،
وَيَغْذُونَ السَّيْرَ ، وَيَنْزِلُونَ مَنَازِلَ الْغُرْبَةِ ، لَسْكَنِهِمْ لَمْ يَكُونُوا
مِثْلَنَا ، فِي حُبِّ الرَّحَلَةِ ، لِمَجْرَدِ حُبِّ الرَّحَلَةِ ، وَالِاتِّدَادِ
بِالْجَدِيدِ الطَّالِعِ . كَانُوا يَمْتَطُونَ غَارِبَ السَّفَرِ ، فِي تَحْقِيقِ
مَطْلَبِ ، وَبُلُوغِ غَايَةِ ، وَنَحْنُ نَسَافِرُ ، إِذْ نَسَافِرُ ، الْيَوْمَ ،
حُبًّا لِلتَّنْقُلِ ، وَالْكَشْفِ ، وَتَبْرُهُمَا بِالْأَشْيَاءِ الَّتِي نَعُودُنَا
رُؤْيَتِهَا . أَمَّا أَيَّامُ النَّاسِ بِلِذَائِدِ التَّأْمُلِ فِي الْحَقَائِقِ الْمَائِلَةِ ،
وَبتَكَرِيرِ النَّظَرِ فِي جَمَالِ الدَّوَامِ ، وَفِي سُرِّ الْقَدَمِ ، فَهَاتِيكَ ،

لعمرك ، قد خلت ! ومن هنا ، ايضاً ، ما ترى من حبّ
الناس لتغيير الرأي ، وللتعجّل في تغييره .

وانت تعلم ، ايها السامع ، انّ عالم البشر يقوم على
العقل ، وهو الذي لا يبرح متطوّعاً للتغيير ، أي لمحاولة
الصواب ، وطلب الأفضل ، بخلاف عالم الحيوان ، الذي
تخضع فيه الغريزة لأطراد لا ينقطع ، وانّ هذه القوانين ،
التي تبسط على الاجتماع الانسانيّ - وهي ، ايضاً ، في
متحوّل ، كلّ يوم - ليست قيوداً ، وسلاسل ، بل قواعد ،
ودعائم ، يتوكأ عليها العقل ، في طلب الجديد من وجوه
الخير ، وانّ اللذين يعيشون ، في زماننا ، ثمّ لا يحسّون
جديداً ، ولا يشعرون بانقلاب عن وجهة ، وانصراف عن
عقيدة ، هم أهل بلاهة ، تبلدت أذهانهم في دقائق الحياة .
وأضف انّ هؤلاء لن يكون لهم ، في وقتهم ، أن يتأخروا
عن الركب ، اذ انّ حبّ التغيير لم يبق ، كما كان في أزمان
التأمّل البائدة ، نزاعاً من الشوق ، والحاحاً من التفكير ،

بل هو قد أصبح نتيجة لما تفرضه مشاهد السرعة ، وجدائده
الحاجات ، التي جرَّها ، في مختلف حالات المعاشة ، ارتقاء
الآلة ، والمطبعة ، واستفحال حكم الشعب ، وتبسط العقل في
الكشف العامي . والناس تعدي الناس ، في العلة ، وفي
الخلق ! والعهد ، كما ترى ، هو عهد هذا « الراديو » ، الذي
تقلَّب فيه أهوية الأرض بغمزة زرّ ، وعهد هذا
« الصّاروخ » ، الذي يخطف في أعنان الجوّ ، بأسرع ممّا
يخطف الصوت . فمن ذا الأحمق الذي يظنُّ انه يكون له ،
بعد اليوم ، أن ينعزل ، في جزيرة خواطره ، عن الناس !
هذا ، وإنّ للماضي جمالاً ، فيه سعة وريّ ، وللأشياء
المنقضية لذائذ ، تشعر بها دقائق القلوب . . . ويا طالما تزوّد
الناس من الفئات ، الذي لا يعود كربةً أخرى ، ويا طالما
انتفعوا بدمنة ، وتوصّلوا الى الخير بذكرى ! إلا انّ ذلك ،
كلّه ، مردود الى فضل التّغيير ، فانه لولا ذهاب القائم ،
وترك الجاري ، لما أصبح الماضي ماضياً في الزّمن . . .

وانني لا أعرف لك ، في لذائد النُّقْلة ، لذَّة هي أشهى
من ركوب الطيَّارة ، لأوَّل ما تركبها في حياتك ! فلقد
بكرتَ في الصبح السعيد ، تحلُّ مكانك في المركب
السماويِّ ، ونظرتَ في من حولك ، من أهلِّ وأحبَّة ،
يشيِّعونك ، وهم كأنهم يتمنون مثل حالك ، في الخروج الى
الارض البعيدة . ثمَّ تنهض بك الطيَّارة ، ثمَّ تصعد في
الطبقات العلى ، فتتنظر ، انت ، الى ما انخفض من وادٍ ،
وجبل ، وريف ، وبحر ، وتقط بيض ، ولعلَّها المدن ، وورقاع
صفر ، ولعلَّها البوادي ، وكأنك تكاد تسأل نفسك ، في
مثل تجاهل العارف : ما هذه الدنيا ، التي تمرُّ من تحتك ! فيا
رعاك الله ، على منكب الريح : ما تغيَّرت الدنيا ، التي فصلت
منها ، منذ ساعة ، لكنَّ هذا البشريِّ الفاني يصبح ، لأدنى
جديد يلبسه ، غير ما كان ، من ذي قبل ! طبع مركَّب في
صدره ، لا يد له فيه . فها انت ، في الطيَّارة ، المتقلِّبة
بين الزرقاء والغبراء ، قد بدَّل الله سأمك نشاطاً ، وعبوسك

طلاقةً ، وقسوتك رقةً ، وتبرُّمك من تكاليف العيش
رجاءً ، وحباً للحياة ، والناس ، والتواصل . ثمَّ تحطُّ بك
الطيَّارة في البلدة الغربية ، فتطوِّف ، من ساعتك ، في
الشوارع ، وتمرُّ بالمنازل والحدائق ، وكأنك ، ممَّا احاط
بك من بهجة الجديد ، تبئتُ بُشْرًا ! تبدلت بأرضك أرضًا
لا تعرفها ، وبينني قومك قومًا لا صلة لك بهم ، فاذا انت
لا تزال غارقًا في سرور الكشف ، والاختبار ، حتى تلزم
السكن الذي نقلت اليه ، وتبلد به ، فتسأل الله ، بعد ذلك ،
أن يهيئَ لك طيَّارة أخرى ، تحملك الى بلد آخر . . . ولعلَّ
الى هذه السجِّية العجيبة ، وما يُضاف اليها ، يُردُّ افتتان
الناس ، في كلِّ زمن ، بكتب الرِّحلات ، والسِّير ،
والقصص ، وتطاليرهم ، في هذا الزمن ، الى دارات السينما !
بل لعلَّ اليها ، ايضًا ، قد نُظر ، في ماضي الإسلام ، في
الوقف على السِّيَّاح ، والرحالة ، وأهل الرُّجلة ، يُنفق لهم
ما يعينهم في إتيان الآفاق . ومن أطف ما نُقل ، في هذا

الباب، ممّا يساير المعنى، الذي نحن فيه، أن قد وُجد في دمشق، وفي حاضرة مرّا كش، وقف لسقيا الماء المثلوج، في ايام القيظ، للمارين على الطرق. وقيل: ان الماء المثلوج، في وقف دمشق، كان يُسقى بالخرثوب، وبماء الورد!

وهكذا يتحصّل: انّ الفطرة الانسانية قائمة على التّغيير، وانه من جرّاء احوال، وأفعال، شتّى، ممّا يعرض في هذا الاجتماع القائم، قد بلغ حبُّ التّغيير، في ايامنا، غاية لم يبلغها في يوم سابق، وانّ مداومة الشيء لم تبق، هي، رأس الفضائل، فلا حرج اليوم، على من أخذ بجديد، وانّ بيت كثير في عزة:

لقد زعمت اني تعيّرتُ بعدها

ومن ذا الذي، يا عَزُّ، لا يتغيّر!

وهو الذي هتف به صاحبنا، من ثلاث وعشرين ومائتي سنة، والذي زيّفه نُقّاد المعاني، في الشعر، وندّد به

جهاينة الأخلاق ، قد سيغ ، اليوم ، كثيراً ، وأدخل في
ياب الإجازات المعدودة !

كتاب كاريل

هي المقدمة التي وضعها المؤلف لمعرّب كتاب
كاريل : « الانسان ذلك المجهول » . وقد ترجم
الكتاب الى العربية الأب سويد .

كان من الوقوع ، بلا قصد ، ولا انتظار ، أن يلقى اليّ
هذا الكتاب في بيروت ، في أعقاب فصل الربيع ، فلا
أحرّك ورقة ، منه ، في عاصفة المشاغل ، وان يستهلّ
الصيف أيامه ، بعيد ذلك ، ويطيب الزمان في الجبل ، فأنزل
هذه الضيّعة ، بين المنابت والمزارع ، في وادٍ قصيٍّ ، من
أودية « الشوف » ، ويكون أوّل ما يخطر لي هو أن
أشقّ الكتاب على عين ماء ، وعلى ظلّ ، ونسيم — كأنّ
هذه الفلسفة « الكارليّة » ، الهانئة ، أحقّ مكان بها هذه
الطبيعة الريفية ، الهانئة . أي عزلة لعزلة ، وصفاء لصفاء !
أدير عينيّ من كتاب كاريل الى كتاب الطبيعة ، فاذا

الصحيفة لم تتبدّل ، واذا المخاطرة لم تنقطع . . .
وكان من ذلك ، ايضاً ، أن تكون قدمتي ، الى هذه
الضيعة ، بعد فرقة طويلة ، وحدثان كبار ، وأن اكون قد
صرفتُ فيها - والعود ، بعدُ ، أخضر ، أي منذ واحد
وعشرين عاماً - جعبة لم يكدرها مكدر ، من تكاليف
العيش . فكنت وراء الغابة العميمة ، أو عند الحقل المترامي ،
بعيد الذهن عن ذلك الحريق الاوروبي ، العظيم ، الذي
رجّت له ، يومئذٍ ، كرة الأرض ، أنزلُ على الفلسفة في
خزانة كتبها !

وهكذا يتفق لي ، اليوم ، أن اعود الى « المطيلة » ،
حيث لا تبرح آثار اصابعي سالمةً من الحو ، ههنا ، في هذا
الكتاب القديم . . . وأن تقع أوتبي اليها بعد أن تصفّحت
الف كتاب ! بل يتفق لي أن أجلس الى عين الماء ، التي
تنبع ، من مهجة الحجر ، هنيئاً - على مثل عهدي بها ، من
قديم - والحريق في اوروبّة يكاد يتعالى دخانه ، عند

أبواب « بولونية » ، تحت القسطل الالماني !

فعلى خطوات ثلاث ، من مكتبة الطبيعة ، في
« المطيلة » ، أجلس الساعة ، وهذا الكتاب في يدي .
فكأنَّ الزمن قد نكص على عقبيه ، وعاد الفتى ، الذي كان
يجلس هذه المجالس ، في خضرة العمر ، تحت الشجر ، الى
طيب الصبا ، وخلاء الخاطر ! بل كأني به ، بعد أن طوَّف في
كلِّ وجهة ، على سواحل الفكر ، وسلاسل جباله ، وعرته
حرارة السعي ، قد جاء يلقي العصا . . . فهو يراجع ، الآن ،
في دار الدعة ، وجمام القلب ، فهرس همومه ! فاذا آآف
الكتب ، التي علقت بصدره ، والتحمت بعقله ، بعد طول
المكابدة ، في عالية النهار ، وسافلة الليل ، هي أخلاط معرفة ،
تضطرب في الثقة ، وتتلاشى في الظنِّ ، بينما لاتزال هذه
الطبيعة ، في كتابها الفريد ، متصلة السِّياق ، غير منفسخة
لعارض . واذا صاحبنا قد تحفَّظ صنوف المعارف ، وتدارسها
في الورق ، بينما اهل الفلاحة ، هؤلاء ، لم تُشب أصابعهم

بسواد الخبر... فهو يكتب الفلسفة، وهم يعيشونها، وهو
ينظر الى الدنيا من صحائف كتابه، وهم يشرفون عليها من
نوافذ بيوتهم!

...

في هذا القنوط من الكتب أُقبل، الآن، على كتاب
كاريل، وفي هذه العزلة عن التفكير افتح على نفسي باب
الفلسفة. والدنيا من حولي حلوة، خضرة، والرَّغد مخيم،
والزمن وادع، فما لي انحدر الى هذه الجنة، وفي يدي
كتاب، فكأنني اتقل اليها النار؟! ولكن اسم الكتاب
يكاد ينظر الى معنى السأم من الكتب، ومن دوران العقل،
ولفقه، حول المعرفة. اذ القول ان الانسان ما فتى مجهولاً،
الى ساعتك، هذه، ليس هو، في باب المرية في العلم،
والتبرُّم به، أمر آيسيراً - على ان المصنِّفات الأصولية،
التي اصدرها، مثلاً، «هاشيت»، في هذا العام، في فن
التركيب البدني، هي، برأسها، مكتبة! فكاريل، اذن،

يوافيني ، الآن ، على ميعاد ...

وكاريل « ليس فيلسوفاً ، وإنما هو رجل علم ، يقضي
الشطرنج الأكبر من وقته في المختبرات ، يدرس الكائنات
الحية ، ويصرف الشطرنج الآخر ضارباً في أرجاء العالم
الواسع ، يراقب الناس عن كثب ، محاولاً أن يعلم بهم
ويفهمهم ». أي انه رجل لم تشف الكتب صباقة نفسه ،
فجاء هو ، بنفسه ، يكتب كتاباً ، يشفي به صباقة ! فلا
أوضاع أصولية ، ولا طرائق ، ولا قرارات ، من تلك التي
تُحاط بالتبجيل ، وتُصان عن الأخذ والرد ، والتي يُقال فيها
انها نتاج قرائح ، ومحصل عقول - كأن العلم قد انتهى
الى عاقبة ! واذن فقد توافقتنا ، واذن فقد طابت الرفقة ،
من اول الكتاب الى آخره .

وعسى القارىء أن لا يحسب ان المؤلف يحاول
الاهتداء الى سر الحياة - ونريد بسرّها ، ههنا ، ذلك
المعنى ، الذي تكسرت القرون في نطحه ! فان الذي يهتف :

في عنوان الكتاب ، انَّ الانسان ما برح مجهولاً ، الى اليوم ،
أي انَّ الوف الأوف ، من نوابغ الطَّينة البشريَّة ، من
الذين تقدّموا على البحث ، في فكِّ ذلك المعمى ، لم يظفروا
بطائل ، وظلَّ هو معمى الى اليوم ، فمن هتف هكذا أوَّلاً ،
لا يصحُّ له بالتالي (وأستغفرُ تواضعه !) أن ينطح
قضيَّة ، طبقتها فوق طبقة العقل — في حين انَّ علم العلماء
بعجز العلم ، عن النهايات التي لا تُلحق ، يفضي بهم الى
التواضع . فكاريل بعيد ، عن ذلك المعترك ، كثيراً ، وانما
هو ، منه ، في نقطة تتصل الى موضوعه بالتسمية ، لا بصحَّة
وقوع الاسماء على المسميات . فيقول : سرُّ الحياة ، ولكنه
يريد إرجاء الهرم ، وجعل حظَّ النفس فوق حظَّ المادَّة ،
وصرف العلم عن الميكانيك ، والطبيعيَّات ، والكيمياء ،
الى الجسم الانسانيِّ ، وهلمَّ جرّاً — ولقد تقدّم لنا انَّ
الرجل لا ينتهج مسالك الأصوليين ، في إطلاق المصطلحات ،
وحذو الطرائق . ومن هنا تعلم انَّ هذا المؤلِّف ، وهذا

الكتاب ، هما من غير ذلك القبيل .

وبعد ، فالكتاب ، في جملته ، يدور على ان ، هنالك ،
عالمين : الواحد روحي ، والآخر مادي ، وأن قد حاول العلم ،
منذ أوغل الأدوار في القدم ، دخول الأوّل ، وجوس خلاله ،
فحاول عبثاً ، ووقف منه بالعتبة ، وأن الآخر ، وهو الذي
يمثل في أحجامه ، من جبال ، وسهول ، وبحار ، قد كشفت
أسراره ، وأحيط بنواميسه ، وما برح العلم ينقل فيه الخطوة
بعد الخطوة ، وأن هذا البشريّ الفاني قد علق العالم الماديّ ،
لكونه ظاهر آله ، يراه بعينيه ، ويأخذه باصابعه ، وأعرض
عن العالم الروحيّ ، الذي لا يبين له عن ذات نفسه . وهنا
يشنّع كاريل على هذا الضلال ، الذي اليه انتهى العقل ،
ثمّ يردّ بلاء الحضارة ، وتلاطم اشياءها ، بين الطمع ،
والبطش ، والتنافس ، الى هذا الأصل . والدواء ، عنده ، هو
أن يولي العلم وجهه ناحيتي العقل ، والجسم ، شامحاً عن
الماديّة ، والميكانيك ، سالكاً في حيث لم تُنقل قدم ، بعد .

وهو كلام في الفلسفة الروحية ، وفي علوم الاجتماع
والأحياء ، غاية في الصواب . بل هو طويل الأطراف
- كما يقال في كتب الحديث - يصحُّ أن يُقتل منه ،
لفلسفة الحقوق الدولية ، صواب آخر . إذ إنَّ هذه الفتنة
الكونية ، الجارية بين بقعة وبقعة ، بل بين قارة وقارة ،
ترجع ، في مبدأ الحال ، الى طمع في معدن حديد ، مثلاً ،
أو منبع زيوت ، أو منبت غلال ، أو مأخذ بأفواه
السكك ، على أرض ، أو بحر (وسيأتي يوم ، تقول فيه :
أوجو !) . وهذا ، وشبهه ، يقعان كلَّ يوم ، وتبتُّ
اخبارهما الجرائد ، ومحطّات الرّاديو ، في آفاق الأرض ، فلا
حاجة ، معهما ، الى اقامة الدليل . وهو الأمر الذي به
اضطربت « جمعية جنيف » ، في قضية السلم ، وحات ، معه ،
كيف تجد وجه السّداد - فأمّا مداواة الطمع بالطمع ،
والضغط بالضغط ، فانها لا تفضي الى شفاء . إذ انه لا بدّ
في دوران الايام بالأُمم ، ومصايرها بالممالك ، من وجود

قوي يضعف ، وضعيف يقوى ، فتعود المسألة بين مبدئٍ
ومعيد ، وأخذ وراذٍ ، الى ما ليس له قرار .
وهكذا تجد ان كاريل قد أصاب المحزَّ ، في ما يتعيَّن
من ترك علوم المادَّة ، ومن العناية بعلوم الأحياء ، مستطرداً
الى الانتصار لحظِّ النفس ، والعقل ، في مشتبك الحضارة
القائمة ، ملمحاً ، في أَلْف المَعَارِيض ، الى العواقب التي
انتهت اليها المادِّيَّة ، واصفاً الزَّيغ ، والتسوية ، معاً ، حتى
يكاد يكون هذا الكتاب نادر النظر ، في تصانيف علوم
العقل ، على ما أُؤخذ به من الإيجاز ، الذي يصل ، في بعض
المواضع ، الى حدِّ اللَّمَح - وانما هو كتاب إجمال ،
لا كتاب استقصاء ، تُرى منه هذه الحقائق من منفذ
ضيق ، طبعاً . وقد كان لا بدَّ للمؤلِّف ، في كتاب ينظر
الى أبعد الأغراض ، في العلم الروحيِّ ، وفي فلسفة الاجتماع
- عدا ما استُطرد فيه من أثاره الى أثاره ! - من استعمال
طائفة من الألفاظ العاميَّة ، التي لا قبَل ، لكثير من

الخواصّ ، بها ، ناهيك بالعامّيّ ، وبالمبتدئ الشّادي !
فالمؤلّف ، على تباعده عن النسق الاصوليّ ، لم يكن له
مخاص منها . فانما هو ، بعد ، بصدد علميّ واجتماعيّ ، هذه
حروفه الخاصّة به ، وهذه قوالب الأداء ، التي لا يُستطاع
طرحها ، في جميع مواطن القول فيه .

ويا ليت شعري ! أخرج الى الفعل ، هذا الصواب ،
الذي يفصله كاريل ، فتنحط كفة الروحية ، وتشيل كفة
المادية ، ويُعنى العلم بمواجيد النفس ، ولذائد نعيم العقل
بالتنقيب ، والكشف ، بعد ان استغرق في خدمة المادّة ،
وهوم الحواسّ ، في حضارة الميكانيكيّات ، والطبيعيّات ،
والكيميّاء ، القائمة ، وتؤول هذه الزّعازع الى ركود ،
فيطمس على الطّمع ، والزّحام ، والإيقاع ، وتهبّ على كرة
الارض نسمة الرّخاء ؟ !

واعمرك : انّ ذلك الأمل السائغ ، لا يستحيل جوهره في

العقل ، بل يستحيل تحقيقه ، لأسباب ، منها : أن الانسان مطبوع على الترف ، وتطلب مناعم الحواس . وذلك تكفله الماديّة ، ولا تكاد تلتفت اليه الروحيّة . ومنها : أن العلم الروحي يتعلّق بما وراء العقل ، في حين أن العلم الطبيعي يتعلّق بما هو دونه — والانسان ، من فطرته ، كلف بما يعلم ، كاره لما يجهل . ومنها : ان ترقّي أمة ، في العلوم ، والفنون ، وانحطاط أخرى عنها ، يدفع بالأولى الى طلب البجوحة ، في جميع مرافق الحياة ، على حساب الثانية . أضف قضية الكثرة والقلة ، والمدجج والأعزل ، وفضل أرض لأرض ، ولون للون ، في الجلدة الآدميّة ، الى آخر هذه الشّعبة ، الكثيرة التفاريع . . . وليس ذلك بأوّل صواب ، يقره العقل ، ويكون نقيضه هو الحاصل ، بل انه ، هو ، السنّة المعتصم بها ، والتي يعرض عليها البشر بالنواجذ ! ففي الاجتماع الانساني ، لذلك ، امائيل متعدّدة ، لا تختلف فيها مفاهيم قداماء ، عن مفاهيم محدثين ، ولا مفاهيم

جمهور ، عن مفاهيم رجل واحد .

...

وهذا الكتاب عالميٌّ ، بمعنى الانتشار ، وتطير الصيِّت ،
في الخافقين . فانه قد نُقل الى أرقى لغات البشر ، واحتفل
به في أعلى طبقات العلماء . أمّا العربية ، فأول عهدا به
هو هذا اليوم .

وإذن ، فإنَّ للأب سويد ، عند اهل هذا اللسان العربيِّ ،
خدمة بارّة (وقد أسعفهم بحاجتهم ، وجاء عند الظنِّ به ،
في كفاية أمر الكتاب ، بأسلوب نُزه عن القلق ، واللَّبس ،
والترُّك لمقتضى اللُّغة) يعرف قدرها ، من يعرف قدر
ما يعانى كاتب عربيِّ ، يتجرّد لتعريب هذه الممتعَات العاميَّة
المحدثة ، وهو الذي لا يزال ، على ما انفتح للغة قومه ،
من بابي الاشتقاق ، والنَّحت ، بين مسمّى لا يُدلُّ عليه
باسم ، ومعنى لا يؤدّي بمرادف .

وقد لحظ الأب سويد صعوبة نقل الكتاب ،

بالحرف ، الى العربية ، ورأى انَّ الاصل ، نفسه ، يحفل
بمصطلحات أُدخلت في الفرنسية ، وتكاد لا تأنس بها ،
الى اليوم ، لغة « راسين » ، فكيف الاستقلال بترجمتها
الى لغة « الجاحظ » ، والاصطلاح على مرادفها ! فعمد الى
تلخيص خاطرات المؤلف ، تلخيصاً ضابطاً ، ملتفتاً ، فيه ،
الى أَسْأَلِ الدقائق ، وأَبْعَدِ التفاريق ، ثمَّ صبَّ جملة ذلك
في تفرّيع ، وتتابع ، وورصف ، حتى عاد هذا الموجز ، وهو
أَقْرَبُ ما تقع محاكاة نقل لأصل !

ولقد عطف ، طويلاً ، على ما يتصل بأطراف كلام
المؤلف ، من شؤون البيئَة الشرقية ، وعلى ما يُذكر بذلك ،
ويؤخذ بماأخذه ، من مختلف احوالنا ، في هذا المقام .
فاستطرد استطراداً أخرجته من « موقف الدليل من المتحف »
الى موقف الدليل ، منه ، وممَّا تطلُّ عليه نوافذه ، من قريب
وبعيد . فضلاً عن إجاله قامه حيث ينبغي تقليب الرأي ،
في نظريّات المؤلف ، على الاجتماع الانسانيّ ، وتخليص

حقائقها ، واستخراج مخبّاتِها ، والاشارة الى نادرها
ومقيسها - فكأنّ الكتاب ، بذلك ، كتابان ، لا واحد ،
وكانّ المؤلف مؤلّفان ، اثنان !

وحياّه الله ، ما أجمل حفظه ، وأوثق ذمّته ، وأعرفه
بنصوص الأثبات ، إذ هو يدافع ، بين يدي المؤلف ، عن
حصّة الشرق ، من تأريخ الفكر ، ويشيد بفلاسفة القطعة
الصفراء ، من خريطة الكون ، وهم الذين يبيضوا وجه الجنس
الانسانيّ ، في علوم المنقول والمعقول ، ووضعوا أساس
التفكير ، في المكشوفات والمغيّبات ، وأحاطوا بجليل ودقيق ،
ايام كانت أوروبّة ، نفسها ، في جاهليّة لا تميّز معها بين اللّيل
والتراب ! فإنّ المؤلف قد نعى على اساطين الحكمة ، في الشرق
الأقصى ، معالجة علم العقل ، واستبطنهم جوهره ، وزعم
انّ ما انبثق لهم ، من أعطافه ومكاسره ، ليس الاّ أخيلة
صوفيّة ، فانية ، لم تخرج الى التّمحيص . وهكذا تجد انّ
العلامة كاريل - على اعتزاله الفئة المتحدّقة ، من علماء

الإفرنج ، من الذين أولعوا بنقض كل حجر ، من بنيان
التاريخ المشرقي ، حباً لاسلوب التشكيك ، في الحوادث
المقررة ، وهوساً بالآتيان بشيء جديد ، الى غير ذا وذا من
الأسباب ، حتى كاد ينتهي بهم القول الى ان هذه الشمس
من الغرب تطلع ! - فكاريل على انزوائه عنهم ، في كل
شيء ، وعلى انه النضيج ، الراسخ ، العالي المحلة في مجد
العلم ، ما سلم قلمه من تلك الحزازة الأورويّة !

الآن ان هذا الكلف لا يعيب هذا القمر... فالكتاب ،
في جلاله أغراضه ، وطرافة مباحثه ، وفي وضعه المحكم ،
وفي تلخيصه واستيفائه ، وسهولة متناوله ، لا يُلز به ،
في بابه ، نظير ! ولسوف يشرق ، غداً ، بعد أن غرب ،
وهو في خير كساء ، من لغة قومنا ، وينزل منازل ، بين
أيديهم ، ويجري في ترادف النعم على لغتهم .

قضية « النصف الآخر »

القيت في الفئات بالشهادة ، في « الكلية
البنانية » ، في الشويفات - وكانت البلاد اللبنانية ،
يومئذٍ ، على قلق سياسي ، واقتصادي .

في هذا الجوّ العابق بالصِّبَا ، والأمل ، والملاحة ،
وباللطف النسويّ ، والخواطر النسويّة ، تتمنّى كلمات
الخطيب لو انها من الزّهر ، ويتمنّى حبر دواته لو انه من ماء
الزّهر ! جنّة ، ههنا ، قائمة بأمان الله ، فمن ذا الذي يحمل
النّار ، والشواظ ، الى الجنّة ؟ من ترى يجيز لنفسه أن
يحمل اليكّن ، الآن ، أخبار الناحية المضطربة - ناحية
الرّجل ، في الوطن !

وإذن ، فالحديث حديثكّن ، والمدار ، فيه ، عليكّن ،
لا غير . لكنّ المرأة هي نصف من تعاملن ... وقد تغالى
بعضهم (هم ...) ، فقال : « بل هي النصف الأفضل ! » .

فكيف يُدار الحديث عليكنّ ، ولا يكون لنا ، نحن ،
فيه نصيب - نصيب النصف !

وهكذا يخرج ، في الصواب ، انّ الناحيتين هما ، في
الحقيقة ، ناحية واحدة ، وأنّ الناحية الحوائية ، الحبيبة ،
لا تستطيع الانعزال عن أختها . فتتلاقى ، معاً ، في هموم
الوطن ومسراته ، وفي التعاون والأنس ، على طريق الحياة .
ثمّ يصبح هذا الاضطراب ، الذي عندنا ، نحن ، اضطراباً
للأمّ ، والأخت ، والبنت ، ورفيقة العمر ، على كونهنّ
مبرات الذمّة من دواعيه ، وأسبابه !

ولقد شاء الله ، لحكمة ، هي فوق طبقة العقل ، أن
يُنزع جنسكنّ من الأضلاع ، ناحية القلب ، عند موضع
الرقّة (ومن هنا ، في ما يظهر ، جاء اسمه العالي : الجنس
اللطيف !) ، وأن نستقلّ نحن بالصدّم القاسي ، لحصان الحياة
الجامح ، وبالسكب العنيف ، لعرق الجبين ، بين الحديد ،
والحجر ، والصعيد الجامد . صنع الله ، لا يد لأحد في تبديله ،

اللَّهُمَّ الْإِذَا طَلَعَ الشَّعْرُ الشَّائِكُ فِي وَجْهِ السَّيِّدَةِ الْحَسَنَاءِ !
وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ ، يَوْمَ تَقْلَعُ النُّعُومَةُ عَنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ... الْعِيَاذُ بِاللَّهِ ،
يَوْمَ تَصْبِحُ الْمَرْأَةُ رَجُلًا ، وَتَأْخُذُ مِنْ أَصَابِعِهَا خَشْوَنَةَ
الْمِيكَانِيكِ ، وَالزُّيُوتِ ، وَأَهْوَالَ الْكِبَرِ بَأْتِيَّةً ، أَوْ تَحْزُنُ عِنْدَ
مِلْتَقَى الطَّرَافَةِ ، بَيْنَ وَجْنَتَيْهَا ، وَنَحْرِهَا ... يَوْمَئِذٍ ، لَا تَقْرَأُ
عَيْنَاهَا ، هِيَ ، وَلَا عَيُونُ هَوَاءِ الْقَائِلِينَ بِتَرْجُلِهَا !

فِيَا سَامِعَاتِ الصَّوْتِ ، مِنْ قَرِيبٍ ، وَبَعِيدٍ : إِنَّ هَذَا
الَّذِي يُقَالُ لَهُ ، فِي زَمَانِنَا ، « حَقُّ الْمَرْأَةِ » ، إِنَّمَا هُوَ اسْمٌ لَا يَقَعُ
عَلَى مَسْمَاهِ . بَلْ هُوَ ، لِعَمْرُكِنَّ ، دَسِيسَةٌ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَكَيْدٌ يَكَادُ
عَلَيْهَا ، وَخُرُوجٌ عَلَى سِنَنِ الطَّبِيعَةِ ، وَتَقْضُ لِقَانُونَ الْخَالِقِ ،
وَزَرَايَةَ لَصْنَعِهِ ! ثُمَّ إِنَّهُ إِنَانِيَّةٌ ، مِنَ الرَّجُلِ ، عَزِيضَةٌ ! فَكَأَنَّهُ
يُرِيدُ (وَالْكَلَامُ ، هُنَا ، فِي سَرِّ كُنَّ) أَنْ يَجْرِيَ الْمَرْأَةَ إِلَى سَاحَتِهِ ،
كَيْمَا يَطْرَحَ ، فَوْقَ كَاهِلِهَا ، جَانِبًا مِنْ حَصَّتِهِ ، فِي أَحْمَالِ الْمَهْمُومِ !

تَسَائِلُ عَنْ أَيِّهَا كُلِّ رَكْبٍ

وَعِنْدَ جَفِينَةِ الْخَبْرِ الْيَقِينِ ...

ومن لي بصائح ، جافي الصوت ، شديده ، يهتف عني ،
في كل بيت ، فوق أرض لبنان ، يقول : انَّ شأن المرأة
الطبيعي ، لأجله مما يُعدُّ لها من شأن ، غير طبيعي ... وانَّ
احشاء المرأة لم يركبها الله في جوف الرجل ... وانَّ
الأبوة ، التي لآدم ، لم يجعلها الله عند حواء - كلٌّ ، منها ،
له موضع ، وله طبع ، وطلب ، وخلق !

ثمَّ انَّ هذه النعمة السماوية ، نعمة الحبِّ الانساني ،
ينبغي لها قيام الريحانة الناعمة ، التي تعبق في القلب ، وفي
البيت ، وفي سماء المجتمع ، على اختلاف جهاتها ، فكيف
يصحُّ أن تزرع الرياحين جهة الميكانيك ، والزيت ،
والكهربائية ؟

كان يقال للمرأة ، في العهد الفاطمي ، في مصر :
« ستُّ الدار » . ويا حبذا اللقب ... حبذا كلمة لم تستطع
هذه الحضارات العصرية ان تبليغ المرأة ، من حقوقها ، بعض
ما بليغتها اياه تلك اللفظة الفاطمية ! ويحلُّ شأن المرأة ، في

المجتمع الانسانيّ ، عن أن تصبح ، هي ، ستّ المصنع ،
وستّ المنجم ، وستّ الحقل ، والسيّارة ، والطيارّة ،
والدّارعة ، والجحفل في الجند ، والصدّمة في الحرب ! أمّا
جماعة أهل السياسة (أهل الأخذ والردّ ، والجزر والمدّ ،
ليل نهار) ، فإنّ سيّدتي المرأة منصرفة عنهم ، الى ما عظم
من أمر هذه المشاقّ الانسانيّة ، مشغلة عن الزّائل بالباقي ،
وعن معركة الكلام الزّائف بمعركة العمل الصحيح ، وعن
العبث بالجدّ - بالجدّ جميعاً ! فهي معنيّة بالملك الصغير ، أي
رجل الغد الكبير ، الحالم في مهده ، وبالجمهورية الصغيرة ،
في البيت ، أي حجر الجمهورية الكبيرة ، في الوطن ...
ولله ما يكون من طيب الرّيحانة البشريّة ، النّاعمة ،
اللّطيفة الورق ، والأرج ، حين تنبت في ضفاف العلم ،
والتهذيب ، ثمّ تُنقل ، نقل الرّياحين ، الى الدّور والمنازل ،
فتطيب بها الأسرة ، وينشأ النّسل على نسيمها المنعش ،
وتترنّح أعطاف المجالس بحديثها ، ورأيها ، ورزانتها ،

وتضيء ليالي الرّجل بمشاركتها له ، في إطلاع نور الأمانى ،
وتنهض بإشرافها بناية الوطن .

أترانا ، نحن ، أدرى من الله — وأستغفرُ الله ! —

بترتيب المواضع ، وتوزيع الأقساط ، على ما تقتضيه هذه
الفطرة البشريّة؟! ... وهو ، سبحانه ، لم يقل للمرأة :

« بعرق جبينك ، تأكلين خبزك » ! بل يجب لها أن

تأكله ، بعرق الجبين الآخر ، في مختلف أحوال الرّجل

بالحياة — على آدم أن يأتي بمادّة الخبز ، وعليها ، هي ،

عجنها ، وجعلها تحت سقف البيت ، رغفاناً بيضاً ، أو سمراً ،

يكدن يرقصن من الطّيب ، والهشاشة ، والسعادة !

ووالله : انّ خدّ طفل ، واحد ، يطفح بالعافية ، فوق

صدر أمّه ، ليعادل ، في حساب الوطن ، ألف خطبة مجمعة ، في

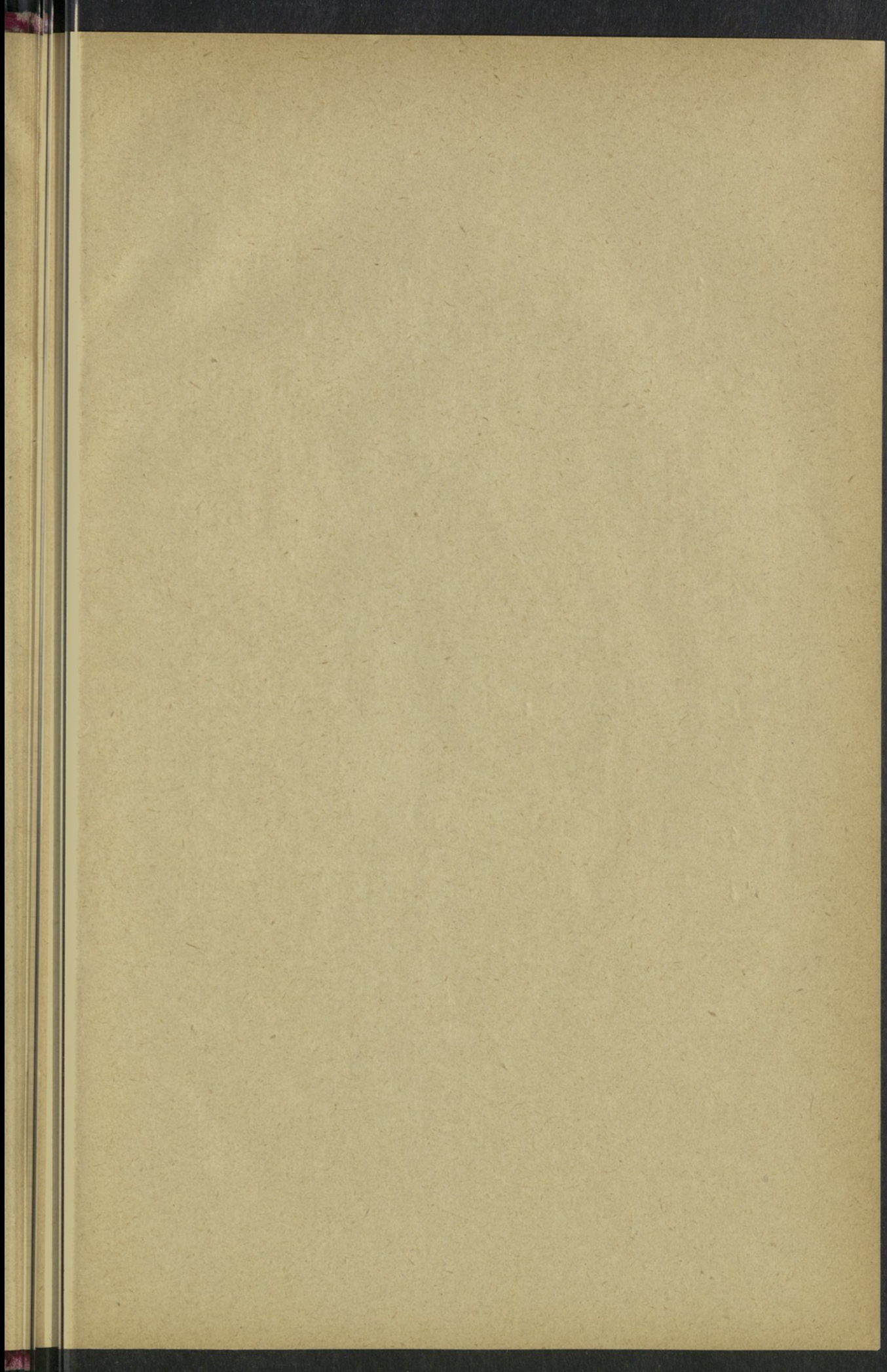
مجلس نواب ! وانّ كلمة نسويّة ، واحدة ، تقال للرّجل ،

في مشورة ، أو تحريك أمل ، أو تهوين بلوى ، أو استنهاض

عزم ، لتعادل الف مقالة مجبّرة ، في جريدة يومية !

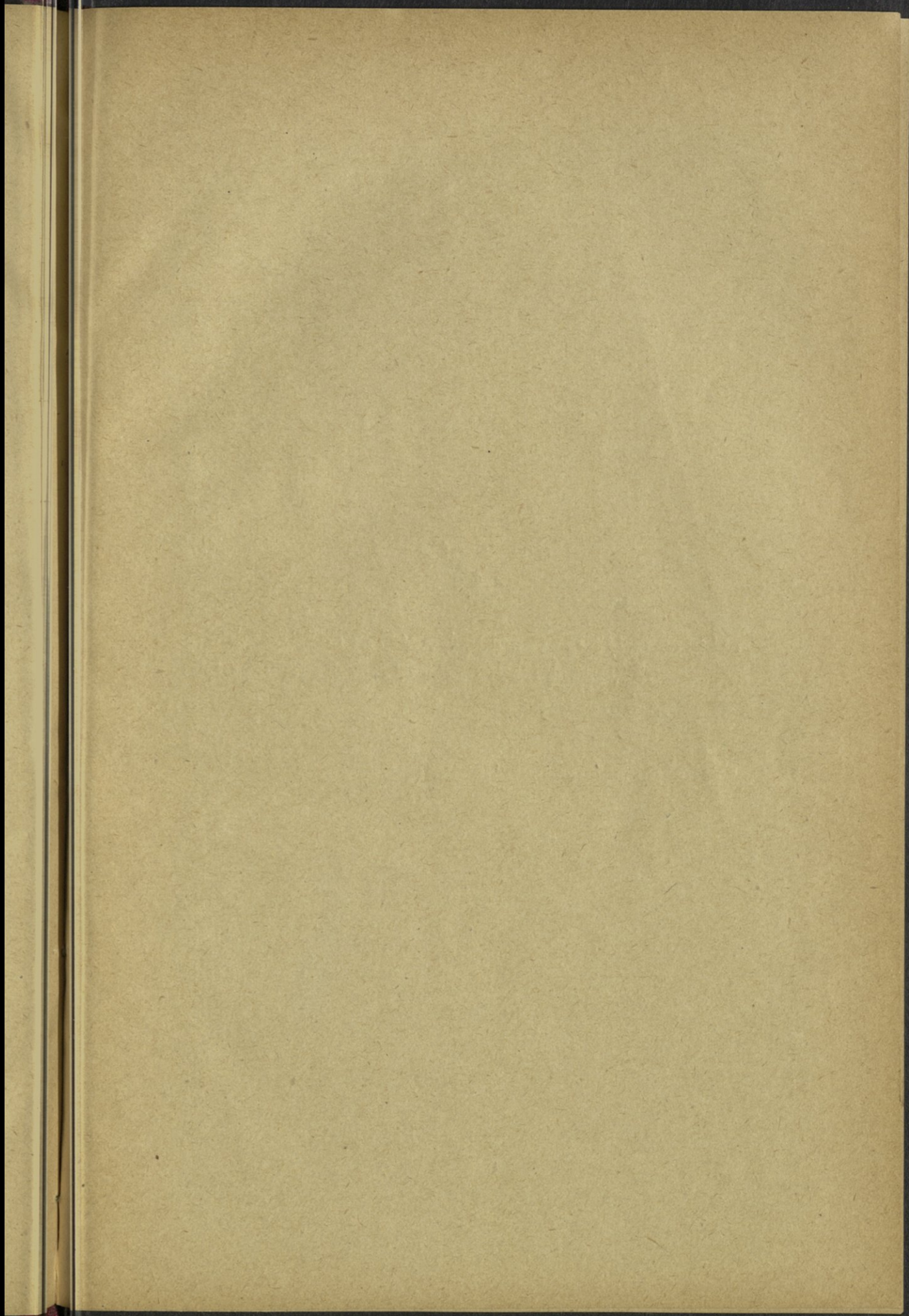
ويا ايتهما الأوانس ، الطالعات على الوطن ، اليوم ، من
هذا الافق العلميّ العالي : أهلاً ، بكنّ ، وسهلاً ، في
العيون والقلوب ، وفي الظلّ المحبوب ، من المجتمع اللبنانيّ .
وبحسبكنّ من التباهي ، في عالم الرّياحين ، انّ منبتكنّ في
العلم ، والتّهذيب ، والثّقافات العصريّة ، هو هذه « الكليّة »
الحبيبة ، القائمة تحت هذه السّماء الحبيبة ، سماء « الشويقات » ،
ذات الخير ، والبركة ، في مواسم الوطن .

فاذا خرجتنّ ، غداً ، الى الدّنيا ، وفي يدكنّ الشّهادة ،
أي المفتاح الخيّر ، الذي يفضي الى عالم الفعل ، والذي به
يتعلّق نعيم الأسرة ، والوطن ، فوحيق « الكليّة » عليكمّ ،
بل وحيقّ الاساتذة ، وما جهدوا ، والوالدين وما بدلوا ،
« أن تضعن مفتاح العلم في باب العقل ... »



ملاحق

سقط عن المؤلف ، عند التمثيل بالطبع ، لباب « وجوه غائبة » ، هذه الخطبة ،
الآتية ، وقد كان هناك موضعها ، فالحقت ، الآن ، بالكتاب .



الخطبة الملاحفة

وهي التي ألقاها المؤلف ، باسم نقابة المحامين ،
في مناخة المحامي الاستاذ ابرهيم الخوري .

شرفتنى نقابة المحامين بحمل دموعها ، الآن ، الى مناخة
التذكّار ، على ابنها الفقيد . وانه من المجد للرّصيف الحبيب ،
أن تشهد النقابة ، اليوم ، بأنّ الرزيّة ، فيه ، هي ايضاً ،
رزيّة علم الحقّ ، في دنيا الباطل ، وأنّ الخسران ، فيه ، يقع
ايضاً ، على فنّ الجدل والبرهان ، وصناعة التّرجيح
والتّصحيح ! فهذه الشهادة الغالية ، التي ترسلها النقابة ،
وتكلّفني حملها ، قد طيّبت قلبي ، وهدّأت عيني ، بعض
الشيء ! اذ انها كانت عزاء لي ، في يدي ، قبل أن تغدو
مفخرةً لإبرهيم ، تدخل في عداد مفاخره — وانما ابرهيم
هو حميمي ، أمس ، في ظلّ الحياة ، وهو قبلة شوقي ، اليوم ،

وراء الغيوب ! فهذا المجد الجمُّ ، الذي أحمله إليه ، الساعة ،
يملاً يدي بما في نفسي . فكأنَّ لي فيه ، فوق العزاء ، وفاءً
لصديق ، وفوق الوفاء ، تجاهياً برصيف !

ويا أسفاً على إبراهيم ، في الرُصفاء ، من واحد له ألف
سجّية : فانه أقبل على الشريعة الأميركيّة — وهو بعد
في ليان العود ، ونأي الغربية ، تحت ذلك الفلك الجديد ! —
فتزوّد ما شاء ، من تشريع يُشرب مع الماء ، لنصّ فيه
مدمج ، جزل ، محكم الحدود ، محرّر المسائل ، يجيء على قدر
المنع والمعاقبة ، ومن اجتهاد هو سداد الحاجة ، وملء
الفراغ ، في بسط الموجز ، وبيان الدقيق ، يتلو تلو النصّ ،
ويجري على مواقع غرضه .

ثمّ يزاول إبراهيم المحاماة ، بين يدي القوس الاميركيّ ،
فيجد انّ ذلك القاضي ليس ، هو ، الاّ تماثلاً ، من لحم ودم ،
لتلك الشريعة ! عنده ، لا يُشقُّ بعض الكلام من بعض ،
ولا يُدخل على الوجدان من باب الطلاوة . وانما هناك جدّ ،

يكاد يخرج الى الجفاء ، وكلام لا ينهض الا على جليته ، بين
النقل والعقل . جدلٌ ، ولكنه اميركي : فتمهل ، واختصار ،
وضجة بلاصوت ...

فطبع ابرهيم ، في التفكير ، على الوضوح ، والاطراد ،
والقصد الى الرأي ، وطبع في الكلام على ما يقال له :
« المختصر المفيد » ، الذي هو إيجاز الصواب - أي على
البلاغة ، لا اقل ، ولا أكثر !

ثم يحنُّ حنينه ، بعد أعوام ، الى وطنه ، وتحمله اليه
اشواقه ، فيحضر ، فيزاول الحمامة ، فيقع على هذا المضطرب
من الاشتراع : قوانين فوق الحصر ، بينا هي فرنسوية ،
اذا هي لبنانية ... فضلاً عن الصدعات ، بين الأصل
والفرع ، وعن التعبير المعنى ، والسرد المقطع ، والغرض
الذي لا ينتهي ، في شيء ، الى شيء ! ثم الاجتهاد ، الذي
يعوزه اجتهاد ، والتفسير الذي ينبغي له تفسير - الى آخر
هذا المضض العميِّ الجسيم . ولكن ابرهيم لم تلبس عليه

الوجهة - وهو الذي استفاد، من النسق الأميركي، فنَّ
تقريب المتناول، وأخذ الأهم، واختصار الطريق في
التتبع - فعكف على درس الشريعة الإسلامية، يعبُّ من
الينابيع التي منها عرف الشارع اللبناني، بعد الشارع
العثماني. وشرح صدره رحمه الله، لهاتيك الممتع في
إحصاء المسائل، واستقراء الدقائق، وتخليص النصوص،
على مقطع الحق، وفصل الخطاب.

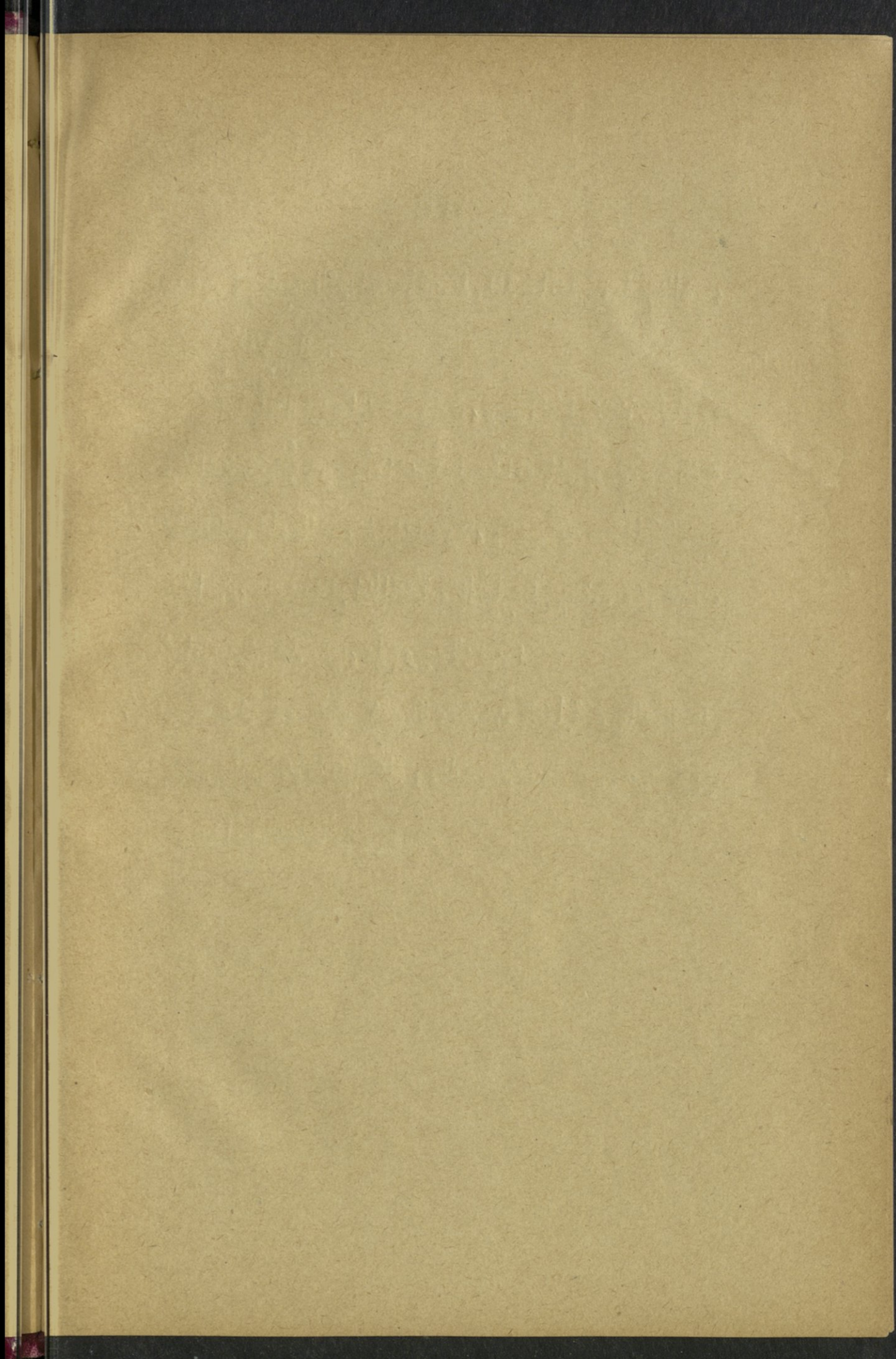
ولم يفت أبرهيم الوقوف على الشرط المتصل بالتشريع
اللبناني، من التشريع الفرنسي، بل لقد أقبل على معرَّبه،
عندنا، وعلى مترجمه في لغة الإنكليز، وتوفَّر حظه من
المذاهب الجديدة، في علوم الحقوق الأوروبية.

فلما جاء القوس اللبناني، بعد ذلك، جاءه من ثلاثة
آفاق: أميركي، وإسلامي، وفرنسوي - أي من
الجللاء، والتبحر، والتجديد! فاذا هو المحامي الواضح
الطريقة، الممعن في التتقيب، المتحفز الذهن لكل

مشتق في باب الطَّرَافَة . ذلك الى لغة سائغة ، وطبع ظاهر ،
في حبِّ الأيِّجَاز .

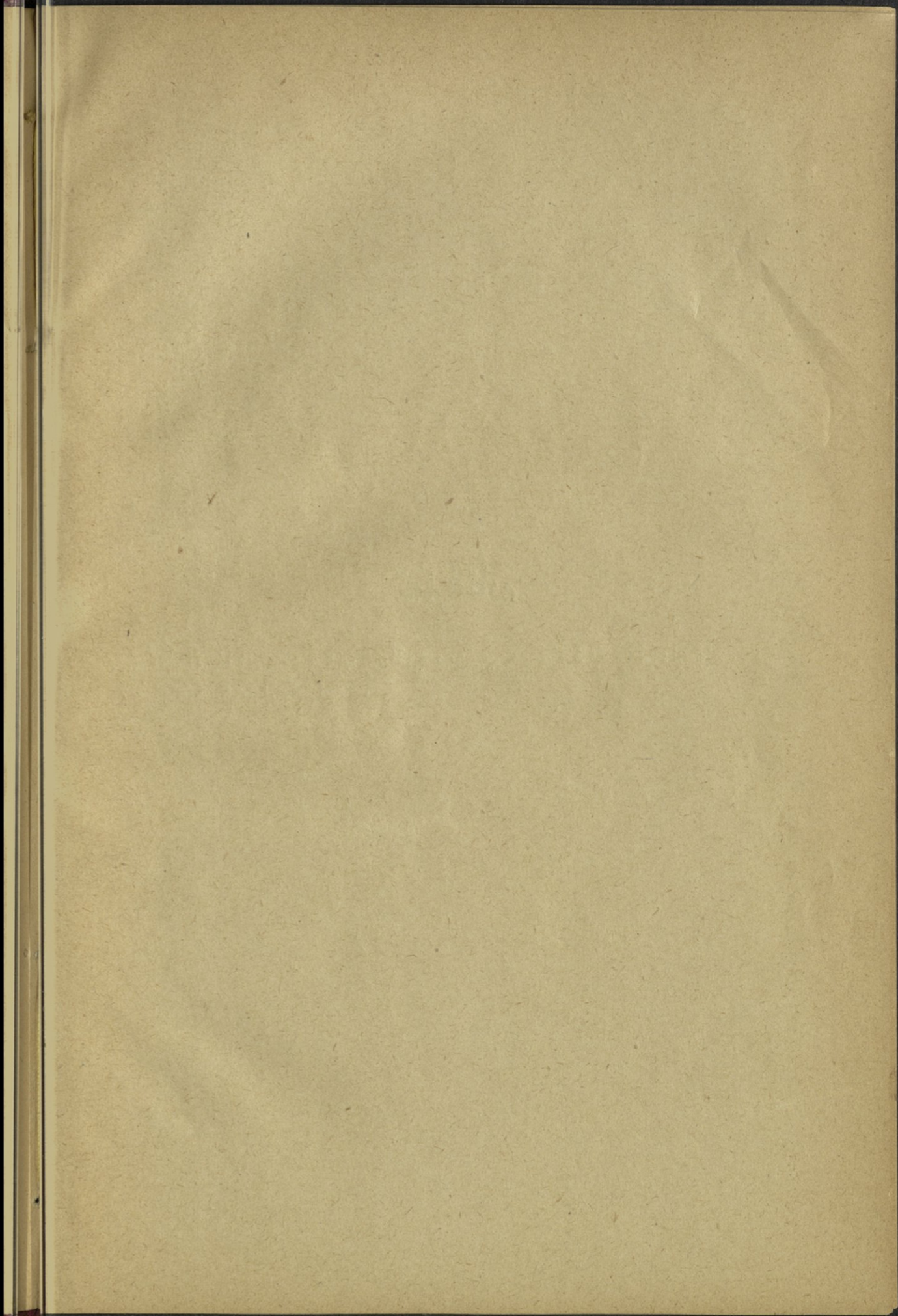
أمَّا بأسه في حماية الصواب ، وجرأته في نفض الرأي ،
وتجافيه عن الزور ، وأمَّا صحبته لرصفائه بالموادعة ، ومبالغته
لأصحاب المصالح ، في المشورة ، وتصوُّنه من المكاسب
الشائنة ، والوسائل الخافضة ، فانما يمثل بعض من هذا ،
يُنَاطُ جميل الذِّكر ، على وجه الزمن !

هذا هو الرِّصيف الذي تعتمدُ النقابة ، بالصَّبْرِ على
فقدِه ، أجر الأمِّ الشَّاكِل ، والذي لا تنطوي ، من قلوب
الرِّصفاء ، صحيفته !



تعليقتان

الأولى على فصل « كاتب العراق » ، من باب « وجوه غائبة » ، والثانية على
مقدمة « في سبيل الصواب » .



رسالة من الاستاذ شكر الى الاستاذ الراوي

تعليقاً على فصل « كاتب العراق »

قالت جريدة « الديار » ، في عددها المؤرخ في ١٨ ، من شهر حزيران ، سنة ١٩٤٤ ، بعنوان : « اديب العراق ابراهيم صالح شكر ينعى نفسه ، ويطلب ان يرثيه امين نخله ، ثم يسلم الروح ! » ، ما هذا بعضه :

« تلقى الاستاذ عبد الجليل بك الراوي ، سكرتير المفوضية العراقية في بيروت ، كتاباً في البريد ارسل به اليه الكاتب العراقي الشهير الاستاذ ابراهيم صالح شكر ، الذي يعد في القطر الشقيق معلماً للجيل الجديد في حب الحرية والاخلاص للأدب . وهذا هو الكتاب البليغ :

« سيدي الاستاذ عبد الجليل بك الراوي .

« تحية مشرقة واحترام صميم . وبعد : فان الآلام ينبوع عذب ولكن [ذات الرثة] مرض وبيل ، وهو يلازمي منذ سبعة عشر يوماً . وقد وصل كتابك الأخير والشعلة تذوب والذبالة ترتجف ، وما ادري ! أهذه الكلمات هي آخر ما امليه على ولدي رياض ، أم اني قادر على ان استقبل مشرق الشمس ومشهد الغروب في مستقبلتي المكتنظ بالمحن والاكدار . وما ادري اتهمز الفاجعة اخي الحبيب امين نخله فينشد مرثية الفجر في مآتم الشفق ... ام ماذا ؟ اني سقيم ! وعندني مجموعة ثمينة من الامراض ما زال الطب في حاجة الى بحثها . ولكن [ذات الرثة] انما هي انتفاضة الديق ، والشيد فرقد ، لا مرقد ...

« ان الكتاب لم يصل . وما اطلمت عليه . وقد فات الوقت . ولكن في الأبد المجهول أوجد انما اقرأ ؟ لقد ابتسمت للنسيم ، وضحكت من العاصفة ، والآن ابتسم ولا اضحك ، واضحك لثلاثا ابكي !

« اخي عبد الجليل : اني استقبل الموت ، ولكن اقبس هو من ضيآه ، ام ومضة

من نور؟ ام ان هذا هو نعي اليك ... وفيك العوض الثمين ! »

...

« وقد وصل هذا الكتاب المؤثر في البريد ، ومعه جرائد بغداد اليومية وفيها نعي صاحبه . اي ان هذا الكتاب هو آخر ما جرى به قلم الفقيد الكبير ، رحمه الله . فكان للكتاب في اوساط المدينة رنة جزن وجزع . »
« وها ان الاسماع ، في كل مكان ، منصتة لما سيقوله اديب لبنان الاستاذ نخله في صديقه اديب العراق الاستاذ شكر ، الذي جعل كل امنيته من الادب ، كما رأيت في الكتاب ، هو أن يرثيه امين نخله ... » (الى آخر ما هناك ، من تقر يظ جزل ، نفتح به الجريدة المؤلف) .

رسالة من الاستاذ المازني الى المؤلف

تعليقاً على مقدمة « في سبيل الصواب »

وهي صورة رسالة ودادية ، من الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني ، رحمه الله ،
بخطه ، الى المؤلف ، منقولة ، هنا ، بالزئكوغراف ، لكي يظفر القراء برؤية خط
كاتب ، طالما تمتعوا باجاداته ، وهي ترفل في حروف الطبع .

البلاغ

تليغون رقم ٥٦١٥٣ - ٥١٧٩٢

نحبراني ١٤/١١ - سنة ١٩٣٨

سيدى الألف الكبير

الاستاذ ذابدين كنت تعلم حفظ الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فاني أكتب هذا اليك على عمل لأعربك
عن أسفه لسفك جناتك وعن رجائي أن يبين الله على الوالد الكريم ما شفاء
ويستغ عليه العافية

وكنت قد أصبت بالانفلونزا مرة أخرى - من كثرة التعرض للبرد على ما أظن -
فلزمت البيت ولم أستطع أن أسمع الى من كنت . ولا حيلة لي فيما يجره علي
سوء الحظ من المرض ، ففحصت ان يكون هذا شفعاي عندك ، وان كان معدي
على شفيع آخر لا يبرء ولا يجيب ، هو قلبك العفوف الرقيق .

شرحمت منذ أيام في مراجعة القاص ، في اوقات متفرقة ، ومثابرة
سوء الحظ لكثرة ما يهجم علي من امتك على المباحثة ، وسأكتب المقدمة بعد
الفراغ من التقلب والتدبير ، وسأتمه أن الطبل المراجعة لا تعرض ما حمرته
في طول الاقصد لك بكت ودوام الصفاة كنت .

بلغت (الاستاذ) سلامك الرقيق ورحمتك الطيبة ، فسر بها وانغشط
واردعي أيضا ، فمن كان الاستاذ ذابدين تعلمه يكرهه على البعد ، فهو حقيقه بالزئكو

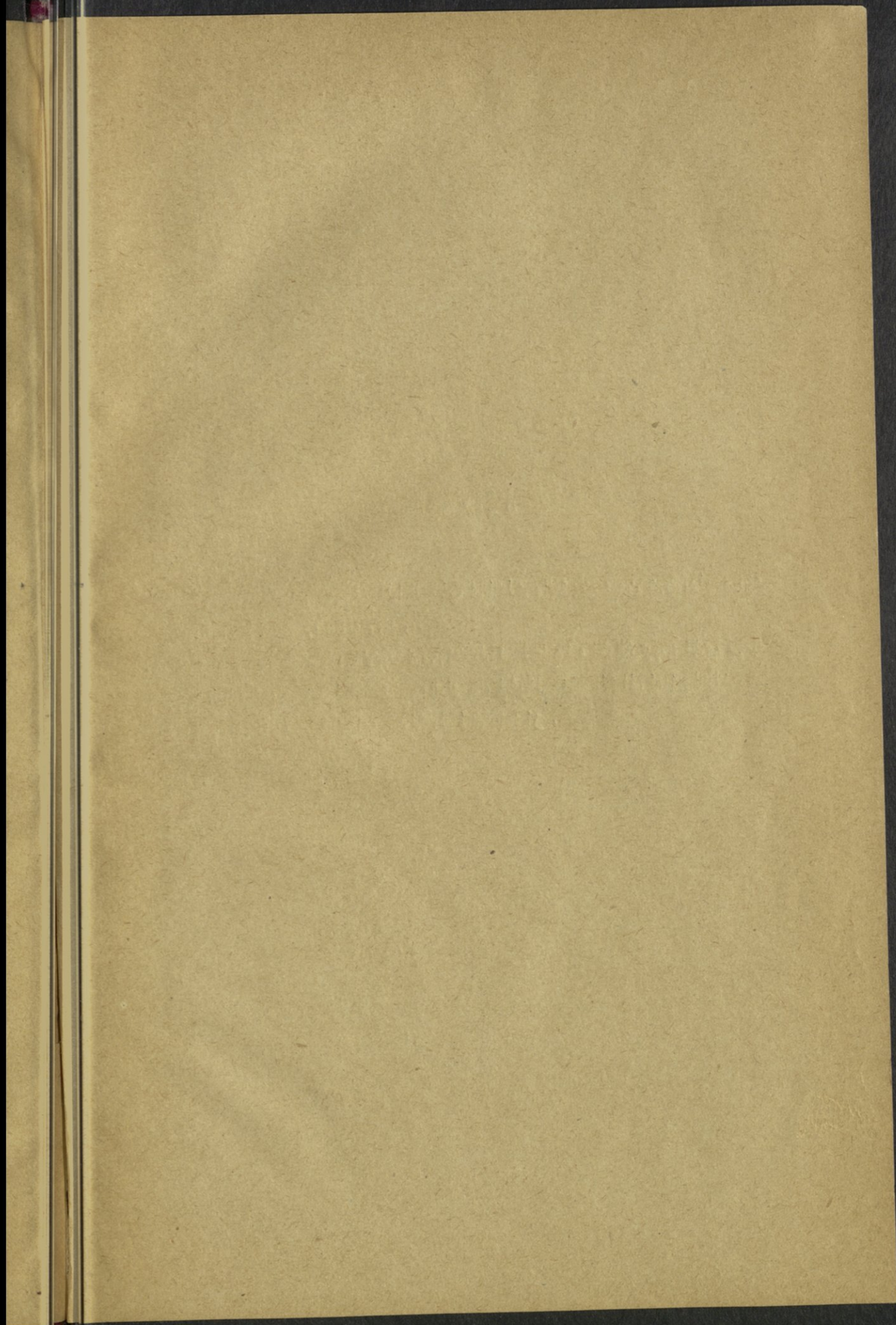
والخيلاء، وقد أصبح يقول وهو يتيم به ذلك عمي، انك من اصدقائي، فبيننا
له، ولست اختلفك انسانا او احساسا او شيئا ما، حتى ولا نفسي، ولا سمع
له ان يعتقد انك تعد به صدقك، فانك تتبع له به ذلك ان يعتز بك من
الادب والموادة يهز نده في رينا نا يا اظن.

حياتي ابي، ورحمتي للوالد الكريم بالجملة، وسلام الى الاخوان جميعا

المخلص
اجرم علة ما نرى

خاتمة

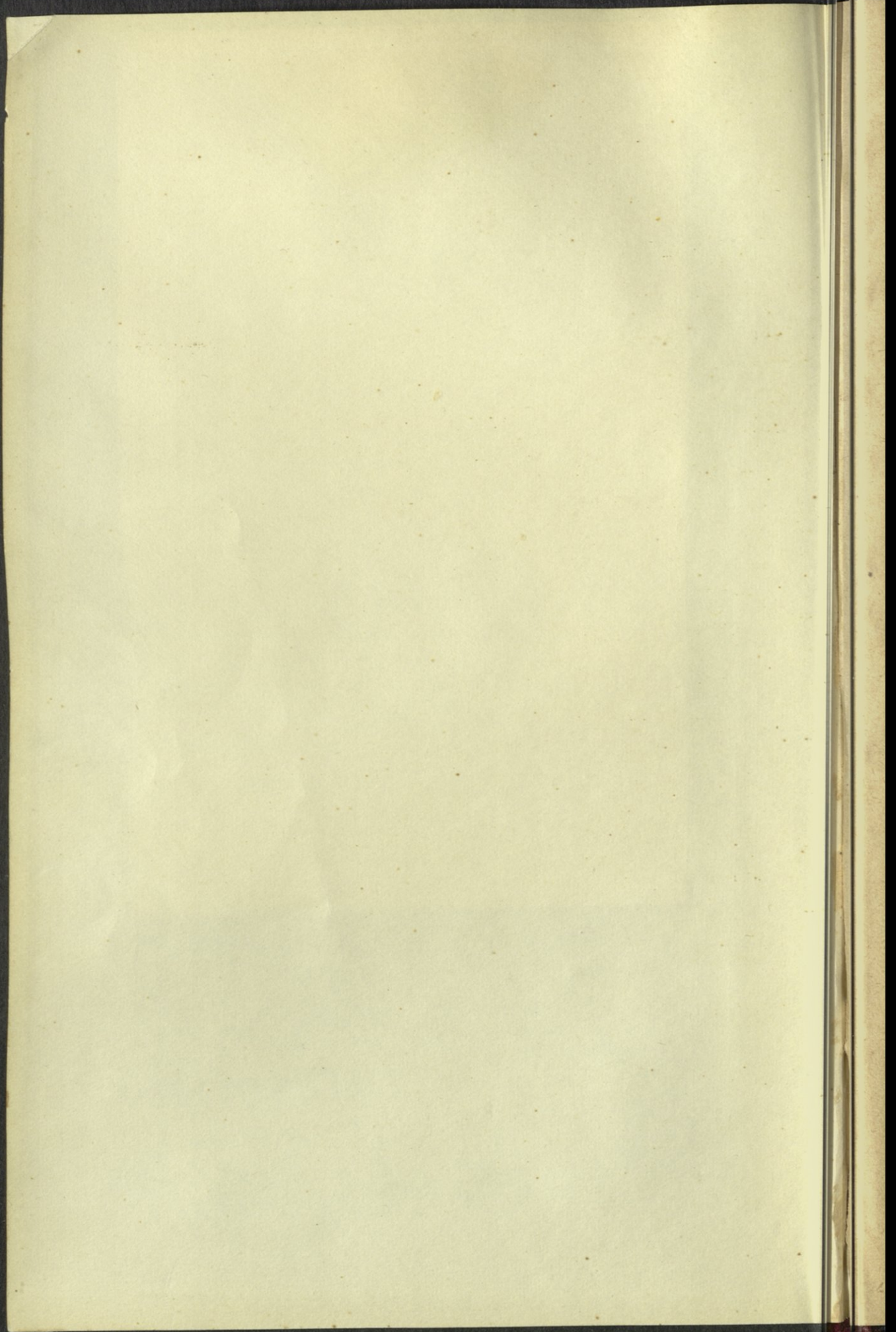
كان الفراغ من جمع هذا الكتاب في الثالث والعشرين ، من شهر آذار ، سنة
أربع وخمسين وتسعمائة وألف .
ويرى المؤلف ان لا بد له من ان يذكر ، ها هنا ، ان الترتيب ، الذي مر به
القارىء ، في فصول « كتاب الملوك » ، لم ينظر فيه الا الى إدماج التأليف -
لا الى تقديم على أقران ، ولا الى إثارة باعزاز .



فهرس

١١	مقدمة الكتاب
	« كتاب الملوك »
١٣	مقدمة
١٥	بين مصر ولبنان
٢٦	فيصل
٣٧	ذكرى الملك
٥٠	سعود في لبنان
٥٣	المقدمة المسيحية
	« وجوه غائبة »
٦١	مقدمة
٦٣	تأبين لبناني
٧٠	كاتب العراق
٨٠	الكاتب الخازني
٩٠	كلمة النقابة
	« في سبيل الصواب »
٩٥	مقدمة
٩٧	حب التعبير
١٠٤	كتاب كاريل
١١٩	قضية « النصف الآخر »
	« ملحق »
١٢٧	مقدمة
١٢٩	الخطبة الملحقة
	« تعليقاتان »
١٣٥	مقدمة
١٣٧	رسالة من الاستاذ شكر الى الاستاذ الراوي
١٣٩	رسالة من الاستاذ المازني الى المؤلف
١٤١	خاتمة

تمّ طبعه في الثامن والعشرين ، من شهر تموز
سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف
« منشورات مطبعة دار الكتب - ١٠١*٢٢٥٠*١٩٥٤ »
« مطبعة دار الكتب » - بيروت



920.02:N16kA:c.1

نخلة، امين

كتاب الملوك: معه وجود غائبة وفي س

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01051215

American University of Beirut



920.02

N16 KA

General Library

920.02

N16 RA